منشورات

مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي

سلسلة الكتب المترجمة _ 18



إيطاليا

في الأحداث البحرية الطرابلسية

تأليف

كاملو منفروني

ترجمة الأستاذ

عمر محمد الباروني

مراجعة الدكتور

صلاح الدين السوري

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

1988

منشورات
مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي
سلسلة الكتب المترجمة _ 18



إيطاليا
في الأحراش البحرية الطرابلسية

تأليف
كاملو منفروني

ترجمة الأستاذ
عمر محمد الباروني

مراجعة الدكتور
صلاح الدين السوري

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى
1988 م

تقديم

يقدمهذا الكتاب مسحاً سريعاً وشاملا للعلاقات البحرية بين طرابلس والدويلات الايطالية منذ أقدم عصورها وحتى انتهاء العهد القرمانلى ، وأعد ، كما يبدو ، في اطار الدراسات العامة التى صدرت عن « معهد الدراسات الفاشيستية لأفريقيا الايطالية » أو بتشجيع منه ، والتى قام بها نخبة من الدارسين الايطاليين في مجالات تاريخية متعددة ، التزم بعضهم الموضوعية من أجل الوصول إلى جملة من الحقائق العلمية .

فالكتاب لايخلو من فائدة ، إذ من خلال استعراضه السريع للأحداث استطاع أن يقدم بعض المعلومات المفيدة وان يلقى الأضواء على بعض المشكلات والقضايا الهامة التى ربما تستثير الباحثين من شباب هذا البلد للقيام بدراسات أكثر عمقاً وأعظم فائدة .

فالمؤلف وهو يتناول تلك الفترة الطويلة بجوانبها المتعددة في هذا الكتيب الصغير قد اكتفى بالنظرة الشمولية العامة كما اكتفى في سياق كتابته بالاشارة العابرة إلى بعض المراجع التى استند عليها ، وربما تقيد في ذلك بالغرض الذى من أجله أعد هذا الكتاب وما على شاكلته ، ومن ثم فهو لم يقدم البحث العلمى المتعارف عليه ، والمحدد في مداه الزماني والمكاني والموضوعى ، كما لم يتقيد بالأصول الشكلية التى تقتضيها المنهجية التاريخية في التقديم والعرض والاختتام ، وفي التهميش والتوثيق والفهرسة .

ومجمل القول أن أهمية الكتاب ما زالت قائمة في معلوماته التى قدمها ، وفي قضاياه التى طرحها ، وفي مشكلاته التى أثارها ، وهو ما دفع مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالى إلى تقديمه إلى القراء باللغة العربية ، وأسند هذه المهمة إلى أستاذ قدير هو الأستاذ عمر محمد الباروني فقام بها خير قيام ، فقد استطاع بفضل تمكنه من اللغتين العربية

والايطالية ، وثقافته الواسعة ، وحسه التاريخي وتجاربه السابقة ، أن يقدم هذه الترجمة العلمية الأمينة بلغة فصيحة وأسلوب جميل ، ولم يكتف بمجرد التعريب بل نظر إلى الكتاب نظرة الدارس المتفحص الذى طالما توقف ليستشير مرجعاً أو آخر من أجل استجلاء حقيقة ، أو تصويب خطأ ، أو تقديم شرح - كما سيرى القارىء بنفسه في هوامش هذا الكتاب .

أخيراً أرجو أن يكون في هذا الجهد فائدة للطلبة والباحثين والدارسين والقراء بوجه عام كما أرجو الله أن يوفقنا في أداء رسالتنا على الوجه الذى يحبه ويرضاه .

د / صلاح الدين حسن السورى
عضو هيئة التدريس بكلية التربية
جامعة الفاتح

ملاحظات عن الكتاب في لغته الأصلية :

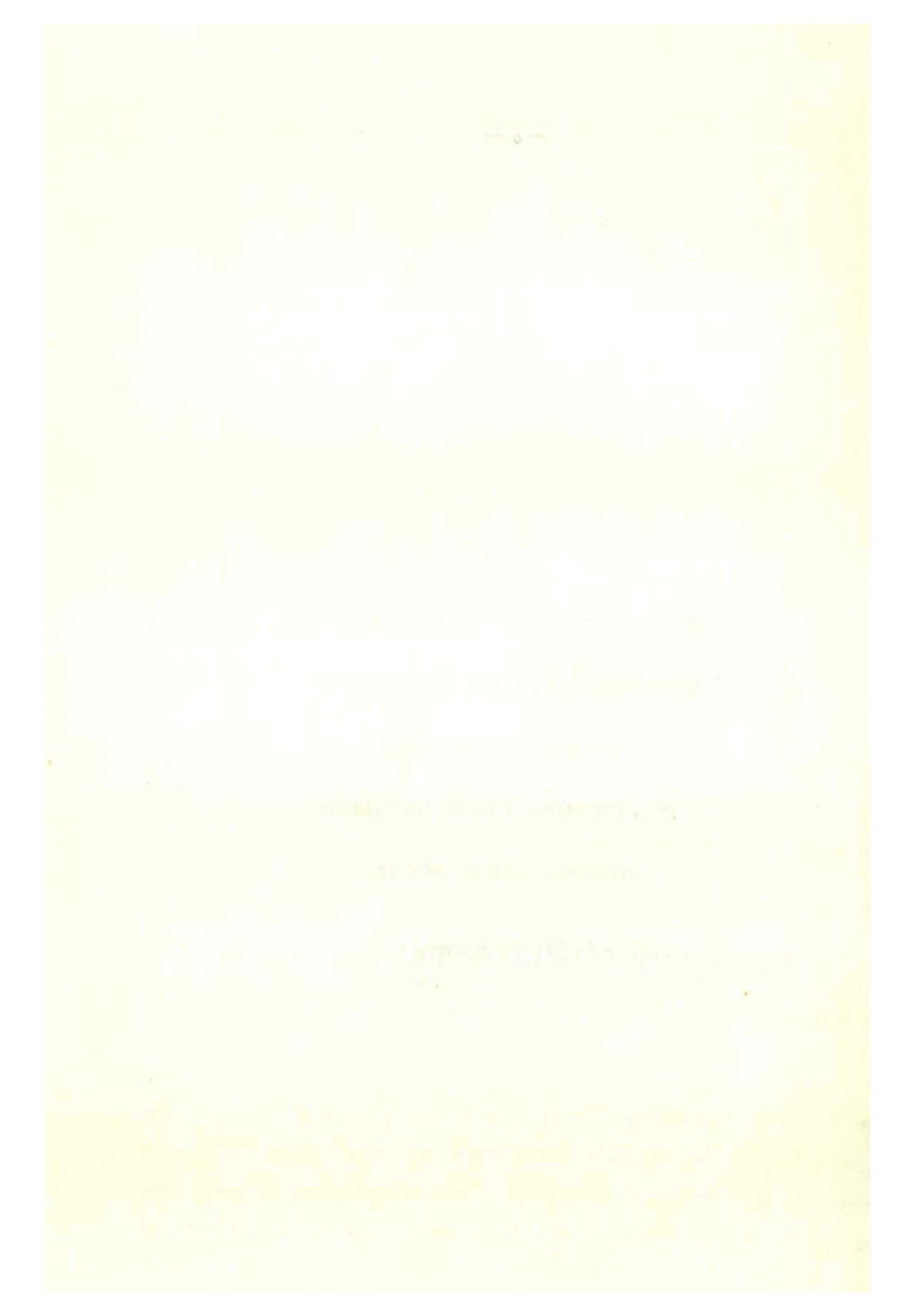
L'ITALIA NELLE VICENDE

MARINARE DELLA TRIPOLITANIA

CAMILLO MANFRONI

A. AIROLDI EDITORE — VERBANA

MCMXLII XX



ملاحظات

في هذا الكتاب جاء ذكر فرقاطة ، غراب ، شباك ، شينى

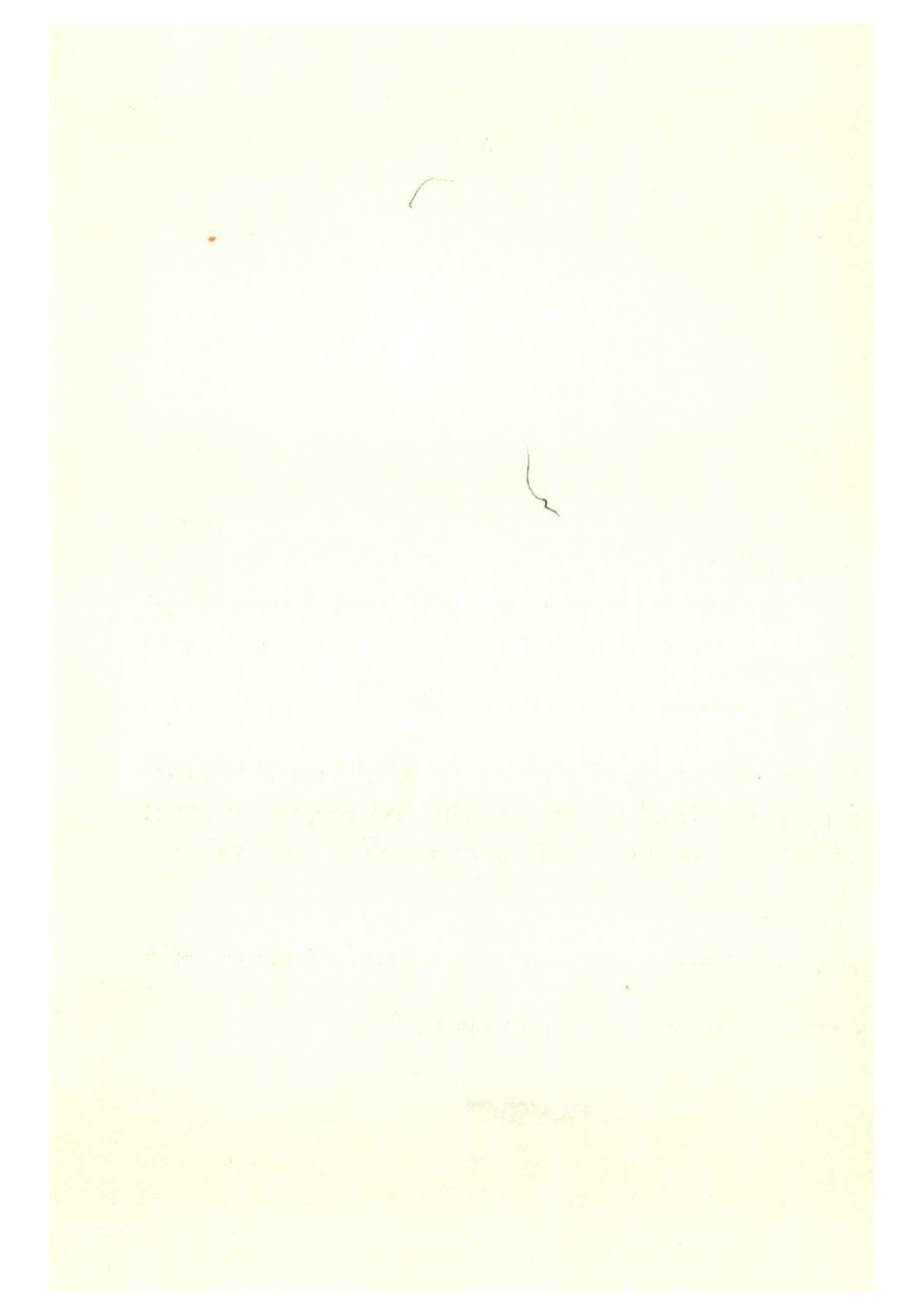
- الفرقاطة : Fregate تحتوى عادة على ٦٠ مدفعاً من عيار ٢٤ وعدد بحارتها ٧٠٠ بحار .

- الغراب : — Corvette استعمل العرب هذا النوع من السفن وذكر كثيراً في الأشعار ويسير بالقلاع والمجاديف ولا يتتجاوز ١٨٠ مجدافاً ومن خصائصه ان يزود بجسر من الخشب يهبط على مركب العدو ويمر على ظهره الجند إلى سفينة العدو.

- شباك : — Sciabecco مركب حربي صغير الحجم .

- شينى : — Galere هو المركب في البحر ومتوسط ما يحمله الشينى الواحد ١٥٠ رجلا ويجدف بمائة مجداف ، وظلت الشواني تستعمل في الملاحة حتى آخر العهد القرمانلى .

المعرب



1

العلاقات البحرية بين ايطاليا ومنطقة طرابلس يلفـّها الغموض وتكتنفها الشكوك في الماضى البعيد ، ولكن هذه العلاقات كانت دون ريب مألوفة بالنظر إلى القرب والهدوء النسبي للبحر الذى يفصل بين البلدين . وكما لوحظ في مرات عديدة ، فأننا إذا كنا نعرف ، في شيء من التوسع ، تاريخ برقة والأحداث الرئيسية التي خضعت لها في الماضى فان المعلومات التي وصلت إلينا عن الأراضى الواقعة إلى الغرب من ساحة اخوة فيليني فقليلة ومتقطعة وجاءت في شكل اشارات غير أكيدة .

وبما يمكن للمصادر النادرة أن تتيح لنا من الحدس ، فإن بعض النقاط على طول السواحل الطرابلسية وحتّى الأراضى الوافعة إلى الشرق التونسى أى المنطقة الواقعة بين السرتين قد أقيمت عليها مستعمرات بونيقية ومن هنا سماها الرومان المحطات البونيقية ، ولكن كم كان عددها على وجه التحديد ؟ وماذا ألمّ بها من أحداث ؟ فذلك ما نجهله ، والرأى السائد الآن أنه عندما برزت قرطاجة كدولة كبيرة فإن تلك المستعمرات إذا لم تخضع للحكم القرطاجى المباشر فإنها خضعت للجزية ومحطة لبشس أو لبتس (لبدة) هى أكبر هذه المستعمرات وأهمها ، وقد قيل أن مرساها ردمه القرطاجيون لمنافسته التجارية لهم ، ومن هنا جاء الاعتقاد بأنه قبل هذا العمل القاسى كان الإبحار يجرى من لبدة إلى السواحل الصقلية – وهى غير بعيدة عنها – من جهة ، ومن جهة أخرى إلى بلاد اليونان . ومن الراجح أيضاً أن لبدة كانت منذ عصور قديمة جداً مركزاً للقوافل المحملة بالبضائع النفيسة من أفريقيا الاستوائية عبر الصحراء ، ويظهر أن أوية (طرابلس اليوم) وصبراتة كان لهما ازدهار بحرى لا يستهان به لكنه يقل بكل تأكيد عن الازدهار الذى تمتعت به لبدة .

كانت المدن الثلاث وغيرها من المدن الصغيرة ، في فترة خضوعها لقرطاجة كانت تزود على الأرجح الحكومة المسيطرة مكرهة بالمال والرجال ، وربما بالمراكب كذلك ،

ولا يستبعد أن رجالا من طرابلس قد شاركوا في المعارك التى خاضتها قرطاجة في صقلية وفي الحروب البونية ، وفي المعارك البحرية العديدة التى قامت بين روما وقرطاجة بالرغم من صمت التاريخ ، وقد جرب سكان سواحل هذه المنطقة التى سميت فيما بعد بطرابلس بالاضافة إلى بعض القبائل الليبية الخاضعة لقرطاج قوتهم ومقدرتهم ضد أجدادنا القدامى .

وبعد الحرب البونية الثانية اقتطعت منطقة المحطات التجارية (الامبوريا) لماسينيا ، ملك نوميديا ، وبقيت في أملاكه وأملاك خلفائه من بعده ، فهل كان الاقتطاع اسمياً وبعيداً عن الواقع ، كما يعتقد الكثيرون ، أو أنه خضوع فعلي أو بجزية مفروضة على أقل تقدير ، فذلك مالا نعلمه وبالتأكيد فإنه خلال حرب جوقرتة ، كما ذكر سالو ستيوس ، انفصلت إحدى مدن الامبوريا ورفضت الخضوع للملكة النوميدية وانضمت بكل تأكيد إلى صف روما ، وقدمت إلى القناصل والولاة الرومان مساعدات من كل نوع ضد الحكام السابقين .

وعندما انتهت الحرب منحت لقب متآلفة (FEDERATA) مكافأة لها من روما وربما حصلت كذلك على حماية ومساعدة ضد قبائل الدواخل الذين زاد خطرهم وتهديدهم والذين ظلت علاقاتهم مع مدن السواحل مجهولة لدينا . إلا ان هناك فقرة أوردها المؤرخ الروماني تاسيتوس نلقى شيئاً من النور على العلاقات المذكورة ، فقد ذكر في تاريخه أن مدينة أوية طرابلس وكانت في حرب مع منافستها لبدة ، استنجدت بالقرمانت وهى من أشد القبائل ولعاً بالقتال في منطقة فزان ، ولبت هذه القبيلة الدعوة واحتلت وخربت لبدة ، وطرد رجالها بعد ذلك بواسطة الكتائب الرومانية المستنفرة ، كان ذلك في عهد الامبراطور فيسبا سيان . لقد انتهت تبعية طرابلس لمملكة نوميديا قبل قرن تقريباً من هذه الأحداث وأصبحت جزءاً من المقاطعة الرومانية الأفريقية وخضعت لتدخل روما المباشر في الحكم والدفاع عن المنطقة ونمت العلاقات التجارية معها وربما ازدهرت الملاحة مع هجرة مواطنين من الرومان وخاصة من جنوب ايطاليا ومن صقلية إلى المدن الساحلية ، وقد أفاد في سلامة المنطقة من غارات القبائل الليبية المتكررة وضمان ثبادل السلع تمركز فيلق أوغوستا الثالث في مواقع ثابتة في كثير من الواحات وعلى طول طريق القوافل إلى فزان .

ولا ريب أن أكثر أيام لبدة ازدهاراً كانت في عهد الانطونيين ، فقد ازدادت العلاقات البحرية مع ايطاليا سهولة وتواجداً وترددآً ونشاطاً .

وغدت لبدة مستعمرة باسم أولبيا ترايانا ومركزاً للازدهار والحياة ، وتلقى الحفريات الأخيرة التى أجراها رومانيلى وبرتوتشينى ، والتى أشير إليها في مجموعة الدراسات الاستعمارية والصادرة بعنوان (أفريقيا الايطالية) ، الضوء على اتساع وترف الحمامات التى تليق بمدينة عظيمة ، وهناك ما يثبت أن ذلك لا يرجع إلى نزوة من نزوات مواطن منها صعد إلى قمة العرش الامبراطورى بل لوجود « مركز حياة مدنية يتقد نشاطاً قبل زمن هذا الامبراطور بأكثر من قرن واحد ، وإلى هذه الثروة والترف تعود عظمة تلك الأبنية ، ويستنتج منطقياً أن لبدة كانت بكل تاكيد مدينة زاهرة جداً وأن مرساها كان يزخر بالسفن وأن العلاقات البحرية مع السواحل الايطالية كانت عديدة وهامة ، وبالمثل فان الحفريات والمخلفات في أوية وصبراتة ، رقم أن أهميتها تقل عن مثيلاتها بلبدة ، فأنها تشهد بأنهما تمتعا بثروة وحيوية كانت كبيرة حقاً وينجلى أمامنا الغموض عندما ندرك أن المدن الساحلية ، مع الاحتلال الرومانى ، بدأت تتدعم تحت مظلة روما وتشعر بالأمن من غارات قبائل الدواخل ، وتشهد بذلك الوسائل الدفاعية والمقابر وبقايا الأبنية والدارات .

وبعد تأمين طرق القوافل اتجهت لبدة إلى تنمية تجارة زاهرة وبحرية تجارية ، لكن ذلك الازدهار دام قرنين أوما يزيد قليلا وكتمت أنفاسه منذ القرن الرابع للميلاد غارات جديدة .

اننا لا نعرف كثيراً عن الاستور الذين هاجموا لبدة وأوية ونهبوهما في عهد جيوفيانو . وهناك من يخلط بينهم وبين الجيتول ، ونحن لا نعرفهم إلا بواسطة قليل من المصادر الضنينة التى أخبرتنا عن الاحتجاج الذى رفعه سكان لبدة ضد التقصير الأثيم للوالى .

ومنذ هذا الوقت بدأ النزوح ، دون شك ، من المدينة وانهارت التجارة ، وربما بدأت القرصنة من قبل هؤلاء المستعمرين الذين ضاقت بهم سبل العيش (هذا مجرد ظن) وعلى أية حال فان الفترة التاريخية الواقعة بين القرن الثالث والرابع للميلاد خافية عنا بالكامل تقريباً .

2

الغزو الوندالى الذى انطلق من المغرب إلى المشرق عبر طريق طويلة بين أسبانيا والمغرب لم يصل إلى طرابلس إلا في سنة ٤٥٥ م أى بعد سنوات عديدة من سقوط قرطاجة ، فقد وجد الوندال شيئاً من المقاومة من قبل القوات الرومانية ، ولا يمكن القول بأن هؤلاء البرابرة قد اتخذوا من طرابلس مستوطناً قارا ، بل اقتصروا على اخضاع المنطقة إلى جزية واستغلوا العناصر المحلية في غاراتهم المستمرة على سواحل صقلية وايطاليا عبر البحر الأبيض المتوسط .

لقد قام الامبراطور يوليوس مايور يانو (٤٥٧ – ٤٦١) بأول محاولة لمواجهة القوة البحرية الوندالية وجمع بليقوريا أسطولا بحرياً قوياً وكان يعتزم قيادته شخصياً ضد جنيسريق (ويقول بركوبيتوس ان الامبراطور ذهب بنفسه إلى ليبيا ليتفقد الوضع شخصياً ولكن الموت قد فاجأه غدراً وهو يعد العدة للسفر .

وأعد الامبراطور ليون الأول بطلب من ريشميرو حامى الامبراطورية الرومانية الغربية حملة بحرية كبيرة لمحاربة الوندال واتباعهم الليبيين الذين أضحوا سوطاً على ظهر الملاحة في المتوسط ، وتجدر الملاحظة هنا أن بروكوبيوس يسمى كل سكان أفريقيا المقيمين غرب الأراضى البرقاوية بـ (موروسى) ، أما الرومان والمترمنون من المنطقة نفسها فيسميهم (ليبيين) ولذلك فمن الصعب أن نفهم من كلام بروكوبيوس إذا يعنى أن سكان مقاطعة طرابلس هم في عداد الصفوف العريضة من القراصنة الذين كان يرسل بهم جنسريق لتخريب صقلية وايطاليا واليريا (ألبانيا اليوم) واليونان وجزر الأرخبيل اليوناني .

أما الحملة التى أمر بها الامبراطور ليوني فقد عادت بنتائج حسنة في البداية إذ أن هرقل الذى أوفده هو نفسه إلى ليبيا قد أحتل طرابلس والمدن القريبة وترك بها السفن

واتجه بطريق البر إلى قرطاجة ، وحيث جمع حنسريق قوته ، وفي هذا الوقت نفسه هاجم جيش آخر جزيرة سردينيا وكانت قاعدة للعمليات العسكرية الوندالية في بحر ترين ، وانطلق السواد الأعظم من القوات البحرية اليونانية بقيادة باسيليسكولتهديد قرطاجة .

ولكن نتيجة المعركة البحرية التى التقى فيها الوندال باليونان في مياه قرطاجة كانت كارثة على اليونان ، سواء بسبب ماسال في يد القائد اليوناني من ذهب جنسريق، كما قال بروكوبيوس ، أو بسبب وقوعه في خديعة نصبها لها الملك الوندالى . وبالطبع فإن نتيجة هذه المعركة الكبيرة التى تقاتل فيها اليونانيون والوندال وشارك فيها المور والليبيون كانت خسارة طرابلس التى سبق أن أعيد احتلالها دون مشقة ، وما ترتب عليها من دعم لقوة الوندال .

وبعد وقت توطد ما يشبه السلام بين الامبراطورية الرومانية الشرقية والوندال ، أو بتعبير آخر ساد ما يشبه الهدنة ، ويظهر أن الولايات الايطالية التابعة للامبراطورية الرومانية الغربية كانت مستثاة من هذا الوضع ، فقد ورد في عهد آخر الأباطرة أنتيميووأولبيريو وجليسيريو وغيرهم ما يفيد بضراوة الغارات الوندالية في البحار الايطالية .

وخلال حكم خلفاء جنسريق وجهت قوات الوندال بالأخص ضد أهل البلاد الذين تمردوا وهددوا من جديد المدن الليبية ولم تسلم منهم حتى قرطاجة نفسها .

وفي عهد الملك تراساموند (٤٩٦ ــ ٥٢٣) ثارت قبائل طرابلس بقيادة كاباؤون وهو الذى يقول عنه بروكوبيوس (أنه زعيم المور القاطنين حول طرابلس) لقد احتدمت حرب شديدة بين أهل البلاد والوندال أحرز فيها كاباءون نصراً عظيماً عليهم ، وقد ذكره المؤرخ بروكوبيوس وروى لنا دهاء هذا الرجل بتوسع . على أن قوة الوندال البحرية لم تتأثر كثيراً ، إذ أننا نعلم أنه خلال حكم هيلدريك خليفة تراساموند ، لم يثأر القوط حكام ايطاليا لما أنزل بهم الوندال من اهانة ، وإذ كانوا يدركون مدى ضعفهم البحرى وفي هذه الفترة عقد تحالف وصداقة متينة بين وندال أفريقيا والامبراطورية الرومانية الشرقية وكان يحكمها الامبراطور جوستينو ويدير شؤونها حفيده جوستينيانو .

وكما هو معلوم فإن الثورة التى جاءت بجلميرو إلى سدة العرش الوندالى اتخذت ذريعة لحملة بليساريو ضد الوندال ، ويؤخذ مما نقله بروكوبيوس بتوسع ودقة أنه قبل بداية

الحملة ثارت طرابلس على الوندال بتحريض شخص يسمى بوزيتيوشس (وهذا دون شك من أحفاد المعمرين الرومان) وقد ساعدته جماعة صغيرة من اليونانيين أرسلهم إليه جوستينيان وصار بودنتيوس بعد ذلك بقليل سيداً على كل منطقة طرابلس .

يتكون الأسطول اليوناني وكان يقوده كالونيمو الاسكندراني من ٩٢ درموند (مركب شراعى سريع) يضاف إلى ذلك أسطول كبير جداً من سفن النقل (٥٠٠ سفينة) ، وقبل أن يصل هذا الأسطول حاول الوندال بمائة وعشرين سفينة مسلحة احتلال سردينيا وكانت متمردة ، وبذلك تيسرت امكانية الانزال البيزنطى دون عائق في الوقت الذى كان فيه الجنود مضطربين بسبب ما بلغهم من قوة الوندال البحرية .

لقد جرت حملة بليساريو ضد الوندال كلها خارج الأراضى الطرابلسية ولذا فانها لا تدخل في أغراض بحثنا هذا ولكننا نذكر فقط أن طرابلس باتت في أملاك البزنطيين مثل سردينيا وكورسيكا والأراضى الأفريقية الأخرى التى خضعت للوندال ويقول بروكوبيوس أن بليساريو كان قد أوفد إلى طرابلس نجدة صغيرة من الجند البزنطيين لمساعدة بورنتيوس بعد معركة تريكاميرو التى هزم فيها الوندال وكان مهدداً من قبل الموروسى كالعادة .

لقد جرت الانتفاضة الكبيرة للأهالى في أفريقيا بعد سفر بليسارو إلى بيزنطة ويظهر أن هذه الانتفاضة لم تصل إلى طرابلس ، فقد انتهت المعركة الكبيرة في برقاوءون بانتصار سليمان البزنطى في مواقع إلى الغرب من ممتلكاتنا الحالية ، ونذكر فقط أن الحملة التى قام بها هذا الخصي البيزنطى كانت ضد فصائل محلية نفاها الوندال من قبل إلى سردينيا (يحتمل أن يكونوا من يسمون اليوم في سردينيا بربر يتشيى) .

3

لم يعد الحديث عن طرابلس إلا في حوالى سنة ٥٤٤ عندما أوفد الامبراطور جوستينيان لحكم طرابلس حفيداً لسليمان البزنطى وأسمه سرجوس وأرسل أخاه حاكماً على المدن الخمس . وفي فترة حكم سرجوس هاجم أهل البلاد ويسميهم بروكوبيوس لواتة مدينة لبدة وانتصروا على الجيش البزنطى في معركة ميدانية لأن لواتة لم ترض على الاجراءات التى اتبعها القائد سليمان في تقسيم غنائم الحرب .

وفي وصف الأحداث التالية التى زودنا بها أمين سر القائد بليساريون فان اسم طرابلس والمدن الأخرى بالمنطقة الطرابلسية لم يرد إلا مرة واحدة بمناسبة الحديث عن أهل قبيلة لواتة الذين تحركوا إلى بوزاق (١) من المنطقة المحيطة بطرابلس وانضموا إلى الثوار ضد الامبراطور سنة ٥٤٦ م ولكنهم انهزموا وتشتتوا .

وباختصار فأننا لا نعلم إلا القليل عن التاريخ السياسى والبحرى الطرابلسى أثناء الحكم البزنطى ، ونعلم استنتاجاً أنه بالرغم من أن المنطقة خضعت لمضايقات قاسية بسبب غارات السكان المحليون المتزايدة فأنه مع ذلك استعادت شيئاً من الحيوية وخاصة بعد سقوط حكم القوط الشرقيين في ايطاليا وربطت العلاقات البحرية والتجارية مع صقلية وكالابريا ويولية التى بقيت تحت حكم اليونانيين حتى بعد الغزو اللونقوبردى الكاسح ، ولابد أنها حافظت على علاقات متعددة مع طرابلس، وليس ببعيد أنه في الغزوات البيزنطية الكثيرة بأفريقيا ، التى يذكرها بروكوبيوس أن عناصر من صقلية وجنوب ايطاليا التحقت للعمل على السفن الحربية ، أو على الأقل على سفن النقل .

على أن سلطة الامبراطور على طرابلس كانت تتضاءل باستمرار حتى كادت تكون اسمية ويتبين ذلك من القصور عن مقاومة طلائع الفتح العربي في هذه المنطقة .

---

(١) بوزاق هى التى بسميها الرومان (BYZACENA) وهى مدينة سوسة (تونس) اليوم .

ومن البداية لم تستهدف (تلك الطلائع) الفتح بل الغنائم فقط ، ونلاحظ من خلال المصادر البزنطية القليلة والمصادر العربية الوافرة أن خلفاء الرسول الأوائل بعد أن أصبحوا سادة على سوريا ومصر أطلوا على البحر الأبيض المتوسط ، ولكنهم لم يصبحوا سادة على البحار إلا فيما بعد ولذلك لم يغامروا في تقدمهم إلى ما وراء برقة . لقد جرت الغارة الأولى سنة ٢٢ للهجرة (٦٤٢ م) بقيادة عمروبن العاص وبعد حصار لمدينة طرابلس دام شهراً واحداً احتلها وهدم جزءاً منها وبنى مسجداً ، ولم تذكر المصادر العربية من تولى الدفاع عن المدينة لمدة شهر ، فربما كانت هناك حامية بيزنطية انضم إليها السكان المترمنون ولا يستبعد أن بعض القبائل المحلية قدمت يد المساعدة ، على أنه لم يتبيين أن قائد القوات العربية قد ترك حامية في البلاد ولابد أنه انسحب فوراً وبعد ثلاث سنوات جاء عبد الله (بن سعد بن أبي سرح) لاحتلال طرابلس واخضاع سكانها بجزية ثقيلة جداً(١)

وليس هناك ما يدل خلال كل هذه الفترة أن العرب امتلكوا سلاحاً بحرياً فقد كانت الحملات توفد عن طريق البر ولكن اليونانيين كانوا يمتلكون السفن ، وكانوا يترددون على الموانيء الطرابلسية لشحن زيت الزيتون المتوفر في البلاد ويدفعون في مقابله نقداً ذهبياً ، هذا ما رواه مؤرخ عربي .

واسم طرابلس والمنطقة الطرابلسية تظهر في تاريخ الاحتلال الأول لأفريقية من قبل العرب كمعبر للغزوات المتتالية التى أدت إلى احتلال كل المنطقة الساحلية حتى بلاد المغرب الأقصى في النصف الثاني من القرن السابع للميلاد بعد حروب طاحنة مع الحاميات البزنطية وبشكل أشد مع القبائل المحلية ، وبالطبع فان الامبراطورية الرومانية الشرقية لم تترك نفسها حتى تجرد من هذه المنطقة الهامة والغنية نسبياً بعد خسارة مصر وسوريا فاستنفرت كثيراً من القوات في صقلية وهى مهددة بصفة خاصة ، لتضعها في مواجهة العدو الغازى .

---

(١) أغلب المؤرخين يذكرون أن عمراً قام بحصار طرابلس أشهراً ويقول الدكتور احسان عباس فى « تاريخ ليبيا (دار صادر / بيروت سنة ١٩٦٧) صحيفة ٢٠ ومابعدها «ولكن إذا أخذنابقول البكرى (وفتح عمرو نفوسة وكان أهلها نصارى) تبين أن عودة عمرو لم تكن عاجلة .. وأنها لم تتم قبل أوائل ٢٥ هـ. ويبدو أنه ترك ابن أرطأه وعقبة بن نافع ليحاولا فتح الجيوب الصغيرة » .

ويقول فى صحيفة ٢٣ : (من الصعب أن نتصور أن عمراً لم يترك فى البلاد مفارز من جيشه). ومن ثم فان ابن أبى سرح جاء إلى ليبيا سنة ٢٨هـ لا سنة ٢٥ كما يقول المؤلف . (المعرب)

ومن المعلومات القليلة التى يقدمها لنا الكتاب البزنطيون وقد تستحق اهتماماً خاصاً ذلك الخبر حول ايفاد حملة بحرية جهزت في صقلية وبعناصر في الغالب من الايطاليين سنة ٦٨٩/٦٩٩، ويعود الفضل في اعادة احتلال برقة لهذه الحملة وليس ببعيد أن اقرار سلطة الامبراطور في تلك المنطقة قد جرّ معه اعادة احتلال طرابلس (١) .

نحن الآن بالضبط في فترة هى فوق كل شىء غامضة أندلعت فيها انتفاضة أهل البلاد وحققت نصراً مؤقتاً بقيادة كسيلة الذى آلت إليه السيادة على كل تلك المنطقة التى عرفها العرب باسم افريقية . وهناك خبر آخر عن حملة تحركت من صقلية في فترة لاحقة وربما جرت في نفس الوقت الذى جمعت فيه امرأة — الكاهنة الشهيرة — تحت لوائها أغلب القبائل المحلية وحاربت برجولة ضد العرب .

تلك كانت جهوداً سريعة الزوال وقد استطاع البطل حسان بن النعمان أن يتغلب وأن يقتل الكاهنة وأن يحطم مقاومة البربر وحلفائهم البزنطيين إلى الأبد واستولى استلاءً نهائياً على كامل الساحل الأفريقى من البحر الأبيض المتوسط من مصر إلى المغرب .

وبعد سنوات قليلة جرى اجتياز المضيق من قبل الأمير طارق وانتقل العرب إلى أسبانيا وقضوا على مملكة القوط الغربيين ، وامتدوا بعد ذلك حتى جبال البيرنيه وما ورائها من أرض فرنسا مهددين بتطويق المتوسط تطويقاً كاملا ، يضاف إلى ذلك غزواتهم للقسطينية .

وهدأت النار اليونانية وسيف شارل مارتل ببالغ الخطورة ذلك الاندفاع وبقى المتوسط ولمدة قرنين تقريباً تحت رحمة العرب وخاصة بعدما سقطت صقلية في أيدى الأغالبة بالقيروان الذين استولوا عليها بعد غزوات متكررة سنة ٨٢٧ م .

ومن الصعب العثور على أخبار حول طرابلس وخاصة حول علاقتها البحرية مع ايطاليا خلال هذه المدة كلها ، والخبر الوحيد الذى أمكننى الحصول عليه يتعلق بشخص يدعى (المستنير؟) من العرب المقيمين بطرابلس ، فقد قاد هذا حملة بحرية ضد جزيرة صقلية ولكنه فقد المراكب والرجال بغباء واستحق أشد العقاب . وهذه الاشارة بالرغم

(١) هذه الحادثة ذكرها المؤرخون العرب كذلك ، ومنهم ابوبكر المالكى فى كتاب رياض النفوس صحيفة ٣٠ ومابعدها . وليس فى هذه الغزوة اقرار أو اعادة احتلال بزنطى لبرقة بل الأمر لا يتعدى عملية قرصنة عادية فقد سبوا وقتلوا ولا ذوا بالفرار ، واستشهد فى القتال زهير بن قيس البلوى وكثير من المسلمين . (المعرب)

من قصرها فهى هامة جداً إذ تساعدنا على أن نفهم ان طرابلس في ذلك الوقت داراً لصناعة السفن والتجهيز البحرى كانت الأساس لبعض وإن لم تكن لكل الغزوات على ايطاليا .

ويجب أن نذكر هنا أن المصادر المسيحية عند الحديث عن الغزوات العربية تكون في الغالب بعيدة عن الدقة ، وكثيراً ما تهمل ذكر المكان الذى وفد منه الغزاة وجنسياتهم أو المذهب الذى ينتمون إليه ، ويقتصرون عن تسميتهم بالكفار (١) أو أتباع محمد أو أية تسمية عامة مماثلة ، وبالمثل فإن المصادر العربية دأبت عندما تتحدث عن حملات بحرية ضد المسيحيين أو هجمات مسيحية عليهم أن تذكر كلمة عامة : الروم (الروم) وهذا الاسم ينطبق على البزنطيين ولكن العرب عمموه على كافة رعايا بزنطة قديمهم وحديثهم أى صقلية وبولية وكالابريا وملقى ونابولى وحتى البندقية بل وعلى بعض المدن البحرية في أعالى بحر ترينو .

ومهما كان من أمر ، إذا كان علينا أن نعتبر أن مركز العمليات البحرية ضد صقلية ثم ضد ايطاليا هى تونس ، فمن الصحيح أيضاً أن نعتبر أن كثيراً من الحملات انطلقت من طرابلس حتى أن آحد الكتاب العرب من القرن العاشر للميلاد "وصف مدينة طرابلس بأنها أكثر الأسواق رواجاً بالعبيد المسيحيين وخاصة منهم الإماء" .

---

(١) سنرى فى هذا الكتاب أن المؤلف كثيرا مايستعمل كلمة كافر/ كفار عندما يريد التحدث عن العرب أو المسلمين (المعرب)

4

في خضم الضباب الكثيف لاح بصيص من النور في أواخر القرن العاشر للميلاد بواسطة وثيقة غريبة من البندقية .

ولا مراء ان البحارة الصقليين (١) وبحارة جنوب ايطاليا وربما لحق بهم فيما بعد بحارة من جنوة وبيزا ، كانوا قد غامروا بالمتاجرة مع المدن المغربية ، بما في ذلك طرابلس ، حتّى بعد الفتح العربي ، وقد ربط هؤلاء التجارة مع الحكام المحليين علاقات تجارية سليمة واستمرت هذه العلاقات حتّى في الفترات التى يكون فيها الخلفاء في حرب مع المسيحية ، باستثناء انقطاعات قليلة .

هذه الفترة ذات مظهرين : انتشرت الغارات البحرية وأضحت تزداد أرتال العرب وهم يقودون سفناً سريعة الحركة ويهاجمون مدننا البحرية وينزلون عليها نهباً وسلباً ويأخذون معهم السكان عبيداً ، ومن جهة أخرى ، تقاوم مدننا البحرية ، وتهاجم المدن الافريقية مستغلة فرص الخلاف الداخلى ، وفي هذا الجو نجد الكثير من المعلومات حول العلاقات التجارية .

وتذكر وثيقة من سنة ٩٧١ م أن رعايا دوقيه البندقية كانوا يترددون على الموانيء الافريقية الخاضعة للمسلمين وخاصة المهدية وطرابلس وينقل هؤلاء البنادقة إليها الخشب والحديد والسلاح ، وهذا هو التهريب الحربي بكل معاني الكلمة (كان ينقص المسلمين الحديد وخشب البناء) هذا بالرغم من صدور مراسيم بابوية تمنع تزويد الكفار بوسائل محاربة المسيحيين .

---

(١) فى هذه الفترة صقلية وبعض الجهات من جنوب ايطاليا بلاد عربية اسلامية ، والاتصال – التجارى والبحرى والبحرى شىء طبيعى بين البلدان الاسلامية العربية خاصة وان القاعدة لصقلية هى القيروان – المعرب

وفرضت عقوبات صارمة على المخالفين وتضامناً مع تعليمات الامبراطور البزنطى وباضافة عقوبات مدنية صارمة إلى العقوبات الكنسية فان الدوق كنديانو الرابع جمع المجلس الأعلى وقرر أنه من الخطايا الكبيرة مساعدة الكفار ، ومنع نقل أو بيع وحتى في شكل هدية الأسلحة والمجاديف وخشب البناء والألواح الخ .. (ولتفادى العقوبة قد يحتال التجار ويدعون بأنهم يمنحون السلعة مجاناً) ، وقرر المجلس أن لكل سفينة تبحر إلى أراضى الكفار يمكنها أن تحمل فقط ما يكفيها من السلاح للدفاع عن النفس إذا ما احتاجت إلى ذلك ، أما بالنسبة للأخشاب فقد سمح بنقل الألواح الخشبية التى لا يزيد طولها على خمسة أقدام وعرضها على نصف أوقيه – (٢٥ سم| تقريباً) أو بمعنى آخر الأخشاب التى لا تصلح لبناء السفن وسمح كذلك بالانجار في المغاسل والبراميل والمعاجن الخشبية وغيرها من المستلزمات المنزلية .

ولهذه الوثيقة قيمة خاصة فيما يتعلق بتاريخ البحرية الطرابلسية وتخبرنا بأنه كانت توجد بالبندقية سفينة جاهزة للابحار إلى طرابلس فأمر الدوق بتفريغ كل الحديد والأخشاب الكبيرة منها وسمح لها بالسفر حاملة الأجزاء الخشبية الصغيرة فقط وهذه هى أول مرة يظهرفيه اسم طرابلس الافريقية في وثائق البندقية وتعتبر شهادة ثمينة على وجود تجارة التهريب ، ولمبادلة هذه البضائع الايطالية فان السفن تنقل إلى ايطاليا البضائع التى تتدفق على طرابلس من افريقيا الوسطى وبصفة خاصة من فزان وإذا ما سكتت مصادرنا عن تجارة مدن ايطاليا الجنوبية مع طرابلس فليس لنا أن نستنتج أن التجارة لم تكن قائمة ، وعلى أن كل تاريخ علاقات نابولى وقائيطا وأمالفى مع المسلمين تدفعنا إلى الاعتقاد بأن حركة هذه المدن كانت أكثر نشاطاً من حركة البنادقة من المعلوم أن هذه المدن حافظت على سياسة لم تكن في الغالب عدائية لأولئك الذين يحكمون صقلية وبلاد المغرب في القرن التاسع والعاشر للميلاد ، وعقدوا معهم تحالفاً مستثيرين عليهم الاحتجاج والتهديد ولعنات البابوية ، وكانت هذه المدن تعيش على التجارة البحرية ووجدت أنه من الملائم أن تعيش في سلام مع أعداء المسيحية بضمان مراكبهم من الهجمات القرصنية والكسب من التجارة بالبضائع التى يحتاج إليها الكفار .

5

جرى في نهاية القرن العاشر تحول متدرج غير مفاجىء ، فقد تولت المسيحية زمام الهجوم ضد الكفار مغتنمة فرصة الخلافات التى نشبت بينهم بسبب التعصب المذهبى على أن الدول المسيحية التى سبق أن دافعت عن نفسها في وهن ضد الغزوات العربية لم تتوان أبداً في الرد على تلك الهجمات بتحريض من البابوات والأباطرة البزنطيين والامبراطورية الغربية بعد أن أعيدت إليها الحياة ، كان الهدف لتلك الحملات البحرية جزيرة صقلية أولا ثم أسبانيا وبعد ذلك أفريقية في البحار الغربية كما كانت جزيرة كريت الهدف في الحوض الشرقي من المتوسط ، وتولت القيام بهذه الحملات المدن البحرية التى نمت قوة وسطوة ، متحالفة فيما بينها مرة أو مرتبطة بهذه أو تلك من الامبراطوريتين الرومانيتين .

أما طرابلس فقد كانت خاضعة للحكم الفاطمى منذ نشأة هذه الدولة القوية عند بداية القرن العاشر للميلاد ، وبعد كثير من الانتفاضات العنيفة والقمع الوحشى خضعت لبعض الوقت ثم انتقلت إلى حكم بنى زيرى وكانوا في البداية ولاة لخليفة الفاطمى ولكنهم استقلوا عنه تدريجياً ، ونعلم كذلك أنه في هذه الفترة كانت طرابلس تمر بفترة ازدهار تحققت بصفة خاصة بسبب التجارة مع المدن البحرية الايطالية يضاف إلى ذلك أن هذه المدن وجزيرة جربة غير البعيدة والساحل الشرقي لتونس الحالية بمينائي صفاقس والمهدية كانت كلها مراسى للملاحة بين مصر وأسبانيا .

واختصاراً للأخبار التى يمكن اقتطافها من المصادر العربية فقد كتب بهذه المناسبة ميكاكى يقول : على الرغم من الفوضى الضاربة (يشير إلى المحاولات العديدة للتخلص من الحكم الفاطمى بمصر) وما تبع ذلك من انقسامات فإن البلاد حافظت على درجة كبيرة من الازدهار والثراء والانتاج الزراعى كان على أية حال وفيراً ، ونمت بعض الصناعات .. وازدهرت التجارة . ويذكر المؤرخون العرب الثراء الذى يدره على طرابلس

النخيل والنسيج الصوفي والقطنى ، وبالنسبة للتجارة تتحدث المصادر عن سرت حيث لا يشتهر التجار بالأمانة وعن طرابلس حيث يجرى التعامل في كامل الاستقامة ويتم تبادل البضائع ذات المنشأ الأوربي (يقول الكاتب : المنشأ الايطالى) على البضائع الواردة بالقوافل من الجنوب) .

إلا أن ذلك الازدهار أصيب بضربة قاسية جداً عندما انتهت على الأراضى المغربية القبائل العربية من بنى هلال وبنى زغبة وبنى سليم العربية المتوحشة يخربون كل ما أمامهم ويدوسون عليه بحوافر خيولهم الملتهبة .

وبعد أن خرب هؤلاء المتوحشون الظامئون إلى الغنيمة والدماء (برقة دخلوا إلى طرابلس وما بعدها إلى بلدان افريقية (المهدية) والقيروان . لقد كانت الخسائر فادحة فعلا مع أنهم طردوا بعد وقت قصير ورمى بهم إلى الدواخل حيث اجتاحوا العناصر المحلية الذين ظلوا حتى ذلك الوقت مستقلين تقريباً وظلت المعارك بين القبائل والسلطة الحاكمة مستمرة لا تتوقف وحملت أشد الخسائر المادية ، وفي هذا الوقت الذى أضعف أضعف فيه الخلاف والحروب الداخلية الوحدة الاسلامية في أفريقية ، وقد كانت هشة من قبل ، جرى احتلال صقلية من قبل النورمان بمساعدة المدن البحرية الشمالية ، وبعد كفاح مرير تحققت الوحدة السياسية الايطالية الجنوبية تحت حكم آلتافيلا .

ومن السهل ادراك مدى التأثير الكبير لهذه الأحداث على العلاقات بين الدول الافريقية بما في ذلك طرابلس والمسيحية . وبينما كانت ايطاليا الجنوبية مقسمة بين اليونانيين واللنقوبارد ومدن بحرية استقلت ودب بينها الخلاف وأصبحت عاجزة عن حماية نفسها من الغزوات القرصنية الاسلامية المنطلقة من صقلية وافريقية جاء النصف الثاني من القرن الحادى عشر أى من سنة ١٠٦٥ م وما بعدها فتحررت صقلية وطرد أمراء آلتافيلا اليونانيين واخضعوا امارات اللونقوبارد وأجبروا المدن البحرية على الاعتراف بالسيادة عليهم وشكلوا لأول مرة مملكة بعد سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية ، وبضم ودمج القوات البحرية لجزيرة صقلية الكبيرة مع نابولى وآمالفى وقائيطا وبارىوأوطرانطو أمكنهم بسط السيادة على البحر الافريقى . ومن جهة أخرى فان جنوة وبيسا بعد ان اكتسبا الاستقلال الفعلى ، وربما لايزال اسمياً فقط ، بدأتا لصالحهما تلك السلسلة من الحملات

ضد العرب التى كان يجب أن تمنحهما السيادة على سردينيا وتساعدهما على مهاجمة اللصوص في أوكارهم ذاتها وانزال أشد الهزائم بهم :

وبالرغم من أن هذه الأحداث لا تهم بشكل مباشر ، ودون ريب فان لها تأثيراً سيئاً على قوة المدينة البحرية التى كانت فيما مضى قوة مسلطة على المسيحيين ، ومنها حملة بيسا وجنوة على سردينيا سنة ١٠١٥ / ١٠١٦ وضد مجاهد أمير دانية ، وحملة بيسا على عنابة سنة ١٠٣٤ وحملة بيسا على باليرمو لنجدة الكونت راجار النورماندى في سنة ١٠٦٣ م ضد المعز بن باديس أمير بنى زيرى ووخاصة الحملة الجماعية ضد تميم أمير بنى زيرى بالمهدية :

وبالتأكيد فان الحديث عن حملات طرابلس ضد ايطاليا لم يعد له ذكر ، وتوقفت القرصنة (١) التى كانت سائدة (مع الأسف استعادت الحياة بعد مضى عدد من القرون) أما البحر الأبيض المتوسط فقد بدأ يتحول إلى بحيرة ايطالية بعد ان كانت بحيرة عربية .

---

(١) يقصد بالقرصنة هنا الغارات البحرية التى كان يشنها البحارة المسلحون النظاميون – وهى عمليات حربية قانونية تختلف عن القرصنة الحقيقية التى يمارسها الأفراد بصفتهم الشخصية بقصد السلب والنهب والتى احترفها المسيحيون بتوسع وتسببوا فى الحاق الضرر حتى بمواطنيهم ، كما اعترف هذا المؤلف نفسه – أنظر الفقرة الأخيرة من صفحة ٣٣ فى هذا الكتاب .

6

وتعتبر القوة البحرية العربية بدون شك منتهية مع بداية عهد الحروب الصليبية في السنوات الأخيرة من القرن الحادى عشر ، وبعد قليل وعلى تلك الموانيء نفسها التى كانت تتحرك منها سفن القرصنة وتعود إليها محملة بالغنائم والعبيد سيرتفع علم الصليب مرفرفاً .

لقد حافظ الملك راجار الأول على علاقات صداقة مع مملكة بنى زيرى بالمهدية ، أما راجار الثاني الكونت العظيم فقد جدد لأكثر من مرة اتفاقات الصداقة والتجارة مع أولئك الملوك ، ووضعت من طرابلس إلى تونس شبكة واسعة من العلاقات التجارية مع صقلية وأمالفى وقابطا وتراني وبارى ، وهناك بعض الوثائق ذات طبيعة جغرافية تحملنا على الاعتقاد بأن الرهبان في ديركاوة (على بحر ترينو) كانوا يتاجرون مع البلدان الافريقية بمراكب يمتلكونها ، على ان تلك الفقرة من ابن خلدون المؤرخ المسلم الذى أكد فيها ان ابن تميم (١١٠٧/١١١٦) قد أجبر الفرنجة (ربما يعنى النورمان والجنوبيين والسردينيين) على دفع الجزية له يجب اعتبارها اختلافاً مغرضاً ، الا إذا كان المؤلف وهو من ذوى الضمائر ، يعنى بالجزية تلك المبالغ المتواضعة التى دأبت مدننا البحرية على دفعها مقابل الاستفادة من الفنادق والأحياء الكاملة بالموانيء الرئيسية حيث يزاول مواطنوها تجارتهم ويتمتعون فيها بامتيازات واعفاءات جمركية كاملة أو نسبية ولعل أقدم وثيقة عن هذه العلاقات كانت في سنة ١١٥٧ ، وليست هذه الوثيقة معاهدة بالمعنى الصحيح وكلها

(١) قال ابن خلدون « وكان قد صرف همه الى غزو النصارى والاساطيل البحرية فاستكثر منها واستبلغ فى اقتنائها وردد البعوث الى دار الحرب حتى اتقته أمم النصرانيـة بالجزى من وراء البحر من بلاد أفريقية) وفى نسخة أخرى من بلاد الفرنجة) وجنوة وسردينية " الخ .. ولم أجد ذكر لهذا الخبر فى مصادر أخرى. (المعرب)

رسالة من أمير تونس عبد الله إلى كبير أساقفة بيسا (١) . وقد أشير فيها إلى شيء معتاد وقديم إلى جالية بيسا المقيمة في تونس والمؤلفة من التجار وعائلاتهم وموظفيهم وخدمهم وأنهم جميعاً يتمتعون بامتيازات واعفاءات كبيرة .

على أننا لا نعرف متى تأسست هذه الجالية ولا إذا كانت هى الأولى أو أن هناك غيرها قد استقرت في وقت سابق بأفريقية ، لقد نوقش هذا الموضوع طويلا دون نتيجة وقد تكون المنشأة الأولى للجاليات بأفريقية تعود إلى زمن التدخل النورماني في الحروب بين ملوك الطوائف الافريقيين .

لقد بدأ راجار النورماني بعد أن أصبح ملكاً ظالى صقلية سياسة تضمن له الحماية أو على الأقل الرعاية أو بمعنى آخر السيادة غير المباشرة على السواحل الافريقية التى تمتد أمام جزيرته .

ومنذ عهد راجار الأول أخضع النورمان العرب الذين يحتلون جزيرة مالطة إلى دفع الجزية وأنشئت هناك قاعدة بحرية للقوات أغلب رجالها من العرب اعتنق بعضهم المسيحية بصدق أو بدونه . وفي سنة ١١١٧ م بعد اتفاق جرى بين راجار الثاني ووالى قابس أوفد المالك النورماني حملة على تلك المدينة ، وكما يفهم من روايات المؤرخين العرب المتضاربة (المصادر المسيحية سكتت عن هذه الحملة) فان الحملة قد فشلت ، بسبب قوة الأمير الزيرى البرية على ما يظهر وكانت أقوى من قوة الغزاة .

وجرت حملة ثانية في وقت لم يحدد في موقع أفريقى لم يحدد كذلك (لعله طرابلس) وعادت تجر أذيال الخيبة .

وبعد سنوات قليلة (١١٢٣ م) هجم راجار الثاني على المهدية وقد استفزته على مايظهر غارة على سواحل كالابريا ، ، ولكن اسطوله الذى يقول عنه المؤرخون العرب بأنه كان قوياً ، ولى هارباً بعد أن ساد رجاله الخوف عند نزولهم إلى اليابسة وبالطبع فان مصادر النورمان تذكر شيئاً عن هذه الحملات غير الموفقة ونجد أنفسنا مضطرين

---

(١) – بيسا – بيزا – بيشا – جاءت فى المصادر العربية القديمة بيشا وننطقها بيزا ونكتبها بالحروف اللاتينية PiSa – بيسا – (المعرب)

إلى أن نقبل ما تقوله المصادر العربية ، وهى دائماً مصادر غير موثوقة بسبب المبالغة على الأقل .

ويظهر أن حرباً بحرية قد لحقت هذه الحملات مع نزول المسلمين بالأراضى الايطالية تبعتها هجمات للنورمان على مالطة وتحالف مع كونت برشلونة وهو أيضاً في حالة حرب مع بنى زيرى .

لقد انشغل الملك راجار الثاني بحملات أخرى (على نابولى التى خضعت فيما بعد وضد الأمراء النورمان الثائرين عليه) جعلته يترك فكرة اخضاع افريقية ، لكنه عاد إلى مخطط الاستيلاء على المدن الافريقية بعد أن أخمد كل انتفاضة وضمن لنفسه امتلاك المدن البحرية في جنوب ايطاليا .

وكانت جزيرة جربة المقابلة لقابس أول ما وقع تحت سيطرته فكانت تعتبر دائماً تابعة لطرابلس (١١٣٥) ، فقد استنجد الأمير الزيرى الحاكم بالمهدية على عدوه أمير باجة بالملك راجار .

ولم يعمل الملك النورماني على توسيع ممتلكاته في هذا الوقت لانشغاله باهتمامات أخرى وتلك الممتلكات مضافاً إليها مالطة كافية لاعطائه السيادة المطلقة على البحر الافريقى ، بيد أنه في سنة ١١٤٢ م ، بعد أن ضمن لنفسه السيادة غير المنازعة على جنوب ايطاليا اتجه مرة أخرى إلى أفريقية ، واستطاع اسطول صقلية أن يفرض على سلطان المهدية قبول التبعية للملك راجار ، وكان يقود هذا الأسطول أمير البحر الكبير جورج الانطاكى الذى حاول في السنة التالية احتلال طرابلس والتى كان واليها يعتبر نفسه مستقلا عن السلطان الزيرى بالمهدية . ويبدو في هذه المرة أن التدخل الصقلى قد حرض عليه أمير قابس والذى كان يسعى للتخلص من حكم بنى زيرى .

وقد فشلت هذه الحملة لانه في الوقت الذى كان فيه الجنود الصقليون الذين انزلوا تحت الأسوار يضيّقون الخناق على مدينة طرابلس بحصار شديد وكادوا يجبرونها على الاستسلام ، هبت القبائل الضاربة قريباً من المدينة في أعداد كبيرة واكتسحت المهاجمين وأرغمتهم على الالتجاء إلى المراكب في سرعة تاركين وراءهم الخيول والخيام والسلاح .

وبعد سنوات قليلة وفّر جورج الانطاكى لنفسه قاعدة جيدة باحتلال جزيرة قرقنة (١١٤٥) وفي السنة التالية تحرك مرة أخرى في اصرار ضد مدينة طرابلس بأسطول يقول عنه المؤرخون العرب أنه كان يتألف من مائتى سفينة .

إن مصدرنا الرئيسى حول هذه الحملة هو ابن الاثير ، فقد أفادنا بأن طرابلس في هذه الفترة كانت تمزقها الخلافات بين الطوائف الدينية التى تتنازع على السلطة ولذلك فإن النورمان لاقوا مقاومة في البداية لكنهم شعروا بعد ذلك بأن المدافعين قد تركوا الا الأسوار وأمكن للعدو الاستيلاء على المدينة في يسر وأفحش في القتل والنهب .

وبعد أن أشبع نهم عصابات الغزو نادى جورج الانطاكى بالأمان وأصلح سور المدينة وترك حامية صغيرة من الصقليين من بينهم على ما يبدو بعض المرتدين وسمح كذلك للسكان الفارين بالعودة إلى ديارهم وسافر بعد أن ولى عليها أبا يحيى رافع وهو من بنى مطروح .

ولاعادة تعمير المدينة التى عانت أقسى أنواع التدمير والخراب يبدو أن الملك راجار الثاني قد بعث بأعداد كبيرة من مسلمى صقلية وفتح ميناء طرابلس لتجارة الصقليين وتجار نابولى وإلى غيرهم من مناطق بحرية ايطالية أخرى ، حركتهم جميعاً إلى هناك امتيازات خاصة ولم يمض وقت طويل حتى أصبحت طرابلس سوقاً تجارية هامة للايطاليين.

ويقول الادريسى وهو الجغرافي والرحالة العربي المعاصر لراجار الثاني وقد عاش في كنفه وألف كتابه العظيم في الجغرافية (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ١١٠٠ — ١١٦٦) ان طرابلس مدينة مزدهرة غنية وتقوم سفنها بنشاط كبير مع الموانيء الصقلية وخاصة سيراكوزة .

على أن احتلال جربة وطرابلس لم يبق عملا مفرداً ، ففى سنة (١١٤٧ م) جرى احتلال مدينة قابس بشكل مؤقت باستسلام أميرها إلى الملك النورماني استسلاماً عفوياً ، وخسرت بعد ذلك مباشرة بسبب انتفاضة السكان . وفي سنة ١١٤٨ م استولى أمير البحر جورج الانطاكى في حملة موفقة على المهدية وصفاقس وسوسة ، وبذلك وقع الشاطىء الافريقى من طرابلس وحتى قرب مدينة تونس تحت سيادة الملك النورماني .

ويبدو أن الاحتلال لم يتوغل بعيداً إلى الدواخل وإذا ما قرأنا المصادر بانتباه فأنه يتبين أن قوات النورمان قد اقتصرت على حماية المدن الساحلية ، أما كيف كانت العلاقات مع قبائل الدواخل فهذا مالا نعرفه .

وعلى أية حال فان انشاء مراكز مسيحية ولاتينية قوية على امتداد الساحل الافريقى يشير إلى فترة تاريخية بحرية هامة جداً (على الرغم من أن العنصر الغالب لم يكن لاتنياً بل من أصل عربي) ويمكن أن نعتقد بأن للملك النورماني مخططاً واسعاً بالنسبة لتلك الأراضى المحتلة ، إذ أنه بعد الحرب التى اندلعت بينه وبين الأمراطور البزنطى مانويل كومينو عاد فأستأنف الحملة الافريقية .

وتمت حملات أخرى بقيادة المرتد فيليب المهدوى الذى حل في القيادة بدلا من جورج الانطاكى أدت إلى احتلال بعض النقاط الأخرى من الساحل المغربي من تونس وحتى عنابة (١١٥٣ م) وقد أخضعت تونس إلى جزية سنوية (ولم تحتل احتلالا قارا) على ما يظهر ، وتذكر المصادر بصفة خاصة الحملة على عنابة ، فقد استاء الملك راجار من صغر الغنيمة التى قدمها إليه أمير البحر في هذه الحملة وداخله الشك في اخلاصه له ، بحق أو بدون حق ، واعتقد أن أمير البحر ما يزال مخلصاً لأخوته في الدين فأمر بحرقه حياً .

7

وعندما مات راجار سنة ١١٥٤ وكان قد تلقب بملك أفريقيا ترك لابنه غوليالم منطقة ساحلية واسعة تمتد من طرابلس إلى الجزائر بعضها تم الاستيلاء عليه عسكرياً والبعض الآخر أخضع للجزية .

إلا أن غوليالم لم يعرف كيف يحتفظ بتلك الممتلكات الغنية الواسعة التى يحق لنا أن نسميها ممتلكات استعمارية . وبالنسبة لطرابلس كما رأينا، هناك ما يدل على ازدراع حقيقى لجماعات من المسيحيين . لقد تخلى عن السياسة التى صنعت المجد والفخار لراجار الثاني وأثنى عليها الكتاب المسلمون جميعهم مثل ابن الأثير والتيجاني وابن خلدون ، ففى أيامه قد بذل الاحترام الكامل وبالغ التسامح في المسائل الدينية التى كانت تشغل سكان شمال أفريقيا ، اضافة إلى نظام جباية ضرائب عادلة وسيادة الامن والنظام واحترام التقاليد والأعراف المحلية .

ومن جهة أخرى تراكم ضد ممتلكات غوليالم تهديد خطير من طائفة الموحدين فقد استولى عبد المؤمن منذ سنة ١١٥٢ م على عنابة وتابع رحلته المظفرة في تؤدة ورحل ثانية من غربي البلاد المغربية (الجزائر) في اتجاه تونس وسقطت هذه في يديه وحاصر المهدية وطردت صفاقس وغيرها من المدن الساحلية الولاة المعينين من قبل الملك النورماني وانضمت إلى السيد الجديد تجلله هالة من القدسية (١١٥٦) .

أما الملك غوليالم فقد كان مشغولا في حروب الاقطاعيين الذين دوخوا عرشه ، وعكر صفوه التهديد بالحرب من قبل الامبراطور فيديرك بارباروسا فلم يكن قادراً على معالجة أمر المستعمرات الافريقية ، ونقرأ أنه لتحرير المهدية من الحصار أرسلت حملة بحرية جاءت بالمؤن وأعادت احتلال زويلة وهى ضاحية للمهدية (١١٥٧) ولكننا لا نجد أية اجراءات أخرى للدفاع عن المستعمرات .

ولدينا ما يكفى من المعلومات حول طرابلس ، وعندما شعر الوالى المسيحى بازدياد خطر الموحدين أمر بلعن الغازى من فوق المنابر ، وهذا مخالف للاتفاق الموقع سنة ١١٤٦ عندما احتل جورج الانطاكى المدينة والذى بموجبه لا يجبر السكان على أن يقولوا أو يعملوا ما يخالف مشاعرهم في المسائل الدينية .

والواضح أن الأمر سياسى أكثر منه دينى ذلك أن الموحدين كانوا يدعون إلى حرب مقدسة ضد المسيحيين ، وشعر الوالى بأن السكان يهددونه بمغادرة البلاد ولهذا رأى أنه من الأفضل له عدم الاصرار على تنفيذ أمره ولم يفده ذلك في شئ . في هذا الوقت اتفق الشيخ رافع بن مطروح مع جماعته وقرروا التخلص من الحامية الصقلية بنصب كمين لها ليلا ، وبواسطة الحبال وقطع من الحجارة أغلقوا الشوارع في ظلمة الليل ثم نادوا للقتال . وامتطى الصقليون خيولهم وخرجوا من القصر باندفاع سريع لضرب الثوار فارتطموا بالحواجز ولم يعلموا عنها شيئاً ، فضاعت الخيول أما الرجال فقد قتلوا أو أسروا .

وانتهى بذلك الاحتلال النورماني لطرابلس ، وبعد ذلك بقليل سقطت كل المستعمرات الافريقية باستثناء المهدية التى دافعت بقوة وتعرضت لحصار دام شهوراً طويلة من قبل جيش الموحدين وعلى رأسه ملك الموحدين نفسه .

ولقد أرسل الملك غوليالم للدفاع عن المهدية أسطولا يتألف من مائة وعشرين غليوناً بقيادة بطرس الخصى ، وهناك خلاف شديد بين المصادر العربية والنورمانية حول حصار المهدية .

ويذكر فالكاندو أن بطرس ، وهو من المرتدين عن الاسلام ، قد خان القضية المسيحية وولى هارباً يلاحقه أسطول الموحدين المؤلف من ستين غليوناً ، أما المصادر العربية فتروى القصة بايجاز وتقول ان الأسطول الصقلى تقدم إلى المهدية في ارتباك شديد بسبب عاصفة هوجاء واغتنم الموحدون الفرصة المواتية فخرجوا يتعقبون الأسطول الصقلى بقوات تقل عنه بكثير وأجبروه على الفرار .

واستسلمت حامية المهدية بعد مقاومة طويلة وقد سمح لأفراد الحامية بالعودة إلى صقلية ، ويظهر أن ملك الموحدين قد اضطر إلى قبول هذا العهد لان الملك غوليالم

قد هدده بقتل جميع المسلمين في صقلية ، على أن المراكب التى نقلت الحامية الشجاعة غرق أغلبها في البحر .

وهناك سؤال حائر ، لماذا تخلى الملك غوليالم عن أى مخطط لاستعادة احتلال طرابلس والمدن الساحلية الأخرى ويسعفنا فلكاندو بالجواب ويقول الخصيان المتسيطرين بالديوان الصقلى منعوا بكل أنواع الدسائس ارسال حملات جديدة وهذا المصدر نفسه وهو مغرض على أية حال ذكر أن الملك كان يعتبر الممتلكات الافريلقية التى حققها أبوه ضارة لا تأتي بأى خير ومكلفة .

8

يبدو أن العلاقات التجارية بين السادة الجدد بالمغرب والدول البحرية بايطاليا ظلت منقطعة لمدة طويلة وان التعصب الديني كان عائقاً لمثل هذه المعاملات ، باستثناء جنوة التي وقعت اتفاقات تجارية سمحت بارسال شوان طريدة (١) أو شواني نقل سنوياً إلى كل من تونس وطرابلس وبجاية وسبتة ، وجاء ذلك مذكوراً في وثائق وتحريرات هامة . وبالنسبة لطرابلس ، فاننا نعلم ان رحلات تجارية جرت من سنة ١١٠٧ إلى سنة ١١٦٤ م وفيما بعد ذلك نجد ما يشير إلى أن أهالي بيسا كانوا على علاقات طيبة مع أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي ، وقد كانت لهم مبادلات حتى مع طرابلس مثلما كان لهم مع غيرها من الموانيء في دولة الموحدين الواسعة ، وذكر أن سفينة تابعة لليبيا محملة قمحاً استولى عليها قراصنة طرابلسيون فاتجه حكام بيسا إلى الأمير طالبين منه تنفيذ الاتفاقات النافذة بينه وبين مدينتهم ، تلك الاتفاقات التي تشمل كامل الأراضي الموحدية .

وفي وقت لاحق ، حدد السلطان منصور الشهير وهو ابن يعقوب امتيازات بيسا في أربعة من الموانيء الأفريقية فقط علاوة على ميناء المرية الأسباني ، وهذه الموانيء هي : سبتة ووهران وبجاية وتونس ، وسكت عن طرابلس ، وحيث ان الاتفاق قد وقع سنة ١١٨٦ م ففي هذا الوقت وقعت المدينة وكل منطقة طرابلس في يد مغامر أرمني حليف للمرابطين ، ولم ينتصر عليه المنصور إلا في سنة ١١٨٧ في معركة الحامة . والسكوت عن طرابلس في هذا الاتفاق لم يأت عن رغبة من السلطان بل بسبب ان هذه المدينة لم تكن في ممتلكاته عند توقيع الاتفاق .

---

(١) — الطريدة : وتسمى في اللغات الاوربية بنفس الاسم العربي ، وهي من سفن البحر الابيض المتوسط وهي برسم الخيل وأكثر ما يحمل فيها أربعون فرسا أما الحمالة (طريدة نقل) فيحمل فيها الغلة . — نقلت بتصرف من كتاب " البحرية في مصر الاسلامية صحيفة ٢٥٤ . (المعرب)

لقد غاب هذا الاعتبار عن يقظة «ماس لاترى» الذى استغرب أن المعاهدة التى نشرها أمارى لا تتحدث عن طرابلس ولا عن المهدية .

وقبل ذلك بسنوات قليلة (١١٨١) استطاع الملك غوليالم الثاني ملك صقليةأن يحصل على استرداد المهدية وزويلة ، بل على رخصة لرعاياه للمتاجرة مع تلك الموانيء وهنا أيضاً فان السكوت عن طرابلس يفسر بأنها لم تكن تابعة في ذلك الوقت للملك الوحدوى .

ازدادت تحسناً العلاقات بين الدول البحرية الايطالية والمغرب في القرن الثالث عشر عندما تقلد الأمير أبو زكرى مؤسس الدولة الحفصية الامارة على أفريقيا (١٢٢٩ م) . لقد أوثق هذا الأمير الاتفاقات مع البندقية ومع فردريك الثاني ملك صقلية ومع بيسا وجنوة ، وأهم هذه الاتفاقات هى المعقودة مع بيسا ، فقد منح هذه المدينة الحق في اقامة مستوطنات تجارية في الأراضى الحفصية وبكل ما تحويه هذه الكلمة من معنى — وذكرت أيضاً طرابلس إلى جانب قابس وسفاقس والمهدية وتونس . وتمتعت جنوة بمثل هذه الامتيازات وأقامت منشئاتها التجارية على طول سواحل مملكة أبي زكريا الواسعة ، بقضاتها (القناصل) وكانت لهم سلطة قضائية على جميع مواطنيهم ويديرون شؤون الفندق ، ولهم أيضاً كنيسة صغيرة تابعة له . وللجنويين والبيسائيين والبنادقة بكل تأكيد فنادق وقناصل بطرابلس . وبعد استيلاء فلورنس على بيسا تولى الفلورنسيون الأمر وقامت نفس المنشآت في تونس وقابس وسفاقس وعنابة وبجاية مثلما قامت في طرابلس .

وبموجب هذه الاتفاقات فان مواطنينا (يعنى الايطاليين) تمتعوا بتخفيض خاص في رسم التوريد والتصدير الجمركى ، ويجب أن نقول بأمانة ان الاتفاقات كثيراً ما انتهت بسبب أعمال عنف بحارة غير منضبطين اندفعوا نحو أعمال غير مشروعة مثيرين احتجاج وانتقام رعايا السلطان .

والقرصنة هى في الحقيقة صحيفة مؤلمة في تاريخنا وقد زاولها أناس اضطرتهم الحروب الأهلية إلى الهجرة ، بل وأحياناً حتى من أناس لهم اقامة مستقرة في بلدانهم لم يراعوا مصالح مواطنيهم والأخطار التى يعرضونهم إليها فيرمون بأنفسهم إلى القرصنة ، وبدون اعتبار لأى واحد يأسرون سفناً اسلامية ويستولون على بضائع الغير . وكما يقول حقاماس لاترى فان القرصنة كانت السوط الدائم الذى لا علاج منه خلال العهد الوسيط ، وكانت

السبب في فسخ الاتفاقات والأخطار التي أحدقت بالمستوطنات ، وكانت دافعاً على الاحتجاج والانتقام الذى لا حصر له ، ونضيف نحن ان القرصنة كانت السبب الذى من أجله يلعن اسم المسيحى ويحتقر عند السكان الأفريقيين .

وتلتزم الحكومات بموجب الاتفاقات أن تطارد القرصنة وأن تعاقب بكل قسوة أولئك الذين يصرون على مخالفة العهود ، إلا أن هذه الحكومات في الغالب لا حول لها تجاه هذه المخالفات وعليها أن تتسامح وأن تعتذر وأن تقدم التعويضات .

وبالطبع فان انقطاع العلاقات الودية لوقت قصير أو طويل يتم عندما تقوم أعمال سياسية عسكرية خطيرة مهددة للسلام .

والحملة الصليبية التي قام بها القديس لويس التاسع ضد تونس سنة ١٢٧٠ م كانت لها نتائج خطيرة فقد اضطرت تونس إلى قطع كل متاجرة وخاصة مع الجنوبيين الذين زودوا الملك لويس بأغلب القطع البحرية ، على أن الجنوبيين غضبوا أشد الغضب عندما علموا أن ملك فرنسا لا ينوى الاتجاه إلى الأراضى المقدسة بل يعتزم غزو تونس .

وعرف شارل دانجو شقيق القديس لويس كيف يستفيد من هذه الحملة . فقد وصل إلى تونس عندما مات أخوه وأمكنه أن يضاعف الجعل الذى اعتاد ملوك تونس دفعه إلى ملك صقلية منذ أيام النورمان في مقابل الاذن لهم التزود بالقمح من الجزيرة ، ولا نعلم مدى تأثير حملة لويس التاسع على علاقات الجمهوريات الايطالية مع طرابلس .

ومن جهة أخرى فان تاريخ طرابلس تتجلى فيه تحولات سياسية متكررة وعنيفة ، أحياناً خاضعة كل الخضوع لدولة الموحدين ، ثم تظهر تمردها عليهم ، وأحياناً أخرى تتمتع بشبه استقلال ويحكمها وال مستقل (لقد اعتبرها الموحدون في كثير من الأوقات عدوة لهم) وتتوقف بسبب ذلك صلاحية الاتفاقات المعقودة .

تتحدث بعض المصادر عن حملة عسكرية على طرابلس :

ففى سنة ٦٨٨ هـ – ١٢٨٩ وصل أسطول من ملك صقلية نجدة للأمير عثمان من البيت الموحدى ، وحاصر هذا الأسطول مدينة طرابلس لمدة ثلاثة أيام ثم دخل الجنود وبقوا فيها حتى اعترف الطرابلسيون بسلطة عثمان ، وعاد بعد ذلك الصقليون إلى

بلادهم ، والمقصود بدون شك هو أسطول الملك جاكومو دارقون وكان يقوده راجاردى لوريه ، فهذا هو أسلوبه الخاص المعتاد في تدريب بحارته وتوفير غنيمة سهلة لهم ، مثل ما فعل عندما أحتل جزيرة جربة سنة ١٢٨٤ ، وهو اليوم يجمع في طرابلس غنائم وافرة بغارات على دواخل البلاد وحمل الأمير على أن يدفع له مبالغ كبيرة لمساعدته وبأسطوله على استرجاع السلطة .

ومن ناحية ثانية فان ملك صقلية صار يمتلك جزيرة جربة ، على الساحل الطرابلسى التى استولى عليها أمير البحر الصقلى وحصنها سنة ١٢٨٩ م حتى قال عنها مؤرخ عربي إنها كانت تثير الرعب في نفوس كل السكان القريبين منها . ومن المعلوم أن أمير البحر آلت إليه الجزيرة اقطاعا من البابا بونيفاس الثامن مقابل مبلغ سنوى يدفعه إلى السدة الرسولية . وفي سنة ١٣٠٦ فشلت محاولة ملك تونس لاعادة احتلال الجزيرة بسبب وصول أسطول قوى كان يقوده راجارون بن راجار ، ويبدو أنه في هذه المناسبة كان مع ملك تونس جمع كثيف من المسيحيين حاربوا معه بشجاعة ضد الصقليين .

9

ونتوقف قليلا لنرى مصير جزيرة جربة وقد كانت كما سبق أن عرفنا ، تابعة لطرابلس ولحمايتها من هجوم الطرابلسيين المتكرر وانتفاضات سكانها اقتطعها كورّادو لانسيا الوصى على راجار الثالث لفردريك ملك صقلية . وبأمر من الملك جهزت حملات عديدة على الجزيرة كانت الحملات الأولى منها سيئة الحظ ، وتولى القيادة فيما بعد المؤرخ القطلوني المشهور رايموندو مونتانير الذى استطاع اخضاع المتمردين إلا أنه بعد أن أعاد المتمردون هجومهم المعادى قتلهم جميعاً وأخذ الأطفال والنساء عبيداً إلى صقلية (١٣١١) ، وبقى سيداً على الجزيرة تابعاً لملك صقلية وعمرها بسكان جاء بهم من طرابلس . وبعد ثلاث سنوات تخلى عن السلطة لملك صقلية وبهذا آلت الجزيرة إلى التاج مباشرة .

لكن سوء ادارة الصقليين الذين ارسلوا لحكم الجزيرة أثارت انتفاضات جديدة لم تحرم من مساعدة أعداء الملك الارقوني . ونحن نعلم أن سفن روبرت دانجو ملك نابولى وسفن أخرى من جنوة (في تلك السنوات كان روبرت سيداً على جنوة وكان في حرب مع فردريك ملك صقلية) ساعدت المتمردين وزودتهم بالسلاح ومنعت ملك صقلية من تموين الحامية المحاصرة بالقلاع .

وبهذا فقدت جزيرة جربة وقرقنة مرة أخرى ، أما قائد الحامية بطرابلس السارقوزى وأبنه فقد رجمهما الناس . وحاول ملك صقلية أكثر من مرة اعادة احتلال الجزيرة ولكنهم لم يفلحوا أبداً كما سنرى .

وبالنسبة لطرابلس فأننا نعلم أن السكان بالرغم من المعاهدات التى أبرمتها الدول المسيحية مع ملك تونس ، سيدهم الأعلى ، فإنهم كثيراً ما كانوا يسمحون لأنفسهم بالقبض على المسيحيين الذين يغرقون عند السواحل ويستولون على بضائعهم ويتبين ذلك من وثائق تتحدث عن الاحتجاجات المقدمة ووعود الترضية الصادرة من الملك .

هناك حادثة طريفة قد تفيد في اعطائنا فكرة عن العنف القرصني الذى كثيراً ما اندفع إليه المسيحيون في افريقية ، تلك هى حملة فيليب دوريا سنة ١٣٥٥ وقد أشاد بها الشاعر دانتزيو (٨) في « قصيدة الدم » (أنا أعتقد أن في هذه الاشادة ظلماً) (١) وحتى نفهم الأهمية كاملة يجب أن نذكر أن جنوة وقد تداعت أركانها واختفت الأساطيل التابعة لدولة كانت تلجأ إلى أصحاب السفن الخاصة عندما تحتاج إلى تسليح سفن حربية وهؤلاء يتولون تسليح السفن ويستردون مصاريفهم مما يغنمونه من العدو ، ولهذا الغرض يؤلفون فيما بينهم شركة تعاونية يسمونها بالكلمة العربية « معونة » .

كانت جنوة في حرب مع ملك أراقون منذ ١٣٥٥ الذى نزل بجزيرة سردينيا وأرادت أن تسلح حملة قوامها ستة عشر شينيَا ويعتبر هذا العدد كبيراً في تلك الأيام وتولى فيليب دوريا هذه المهمة ، بيد أن الغرض الذى من أجله جهزت الحملة باء بالفشل ، وشعر بأنه يتعرض لخطر دفع التكاليف ، وبدون الحصول على موافقة جنوة اندفع في تيار القرصنة ، لقد بلغه أن انقلاباً من تلك الانقلابات المعتادة قد قام به مغتصباً السلطة شخصاً يدعى محمد بن ثابت ولمعت في رأس دوريا فكرة اغتنام الفرصة والاثراء على حساب الكفار . ويظهر أن دوريا قد اتفق مع أمير تونس الذى كان يتوق إلى معاقبة المتمرد . إلا أن دوريا قد بالغ في العنف والسلب والنهب (٢) .

وحسب ما روته المصادر الابطالية فأن دوريا قد تقدم بصفة صديق لطرابلس فاستكشف بانتباه دفاعات المدينة وقوة الحامية والوضع النفسى ، وتظاهر بعد ذلك بمغادرة البلاد بعد أن تزود بالمؤن إلا أنه عاد في ظلام الليل وأنزل جنده وهاجم السفن الطرابلسية الراسية

---

(١) جبرييلى دانتزيو (١٨٦٣ - ١٩٣٨) هو شاعر ايطاليا الكبير ، أشتهر بشعره - وما نشره من قصص وروايات كان كمن به مس فى العقل والخلق ، فقد تغنى بالحرب الاستعمارية الايطالية فى ليبيا ، وصار بعد ذلك من أركان الفاشية الكبار . - المعرب)

(٢) تولى محمد بن ثابت بعد وفاة أبيه ولم يقم بأى أنقلاب ، ولم يذكر المؤرخون العرب فيليب دوريا هذا بل ينسبون الغزو الى الجنوبيين وهم منه أبرياء وتبرات منه جنوة كما تبرات من أتباعه وكانت تخاف من انتقاء الدول الاسلامية فى افريقية الشمالية ، ومقاطعتها تجاريا وبحريا . واتفقت المصادر العربية مع المصادر الغربية على ما كانت تتمتع به طرابلس من ثروة ورخاء ، والمبلغ الكبير الذى اقتسمه هؤلاء اللصوص دليل توفر ثروة هائلة يضاف الى المبلغ ما دفعه احمد بن مكى لا فتداء المدينة وهو خمسون الف مثقال من الذهب العين (المعرب)

في الميناء كما هاجم القلعة وكانت خالية من المدافعين واستولى عليها فوراً ، أما ابن ثابت فقد هرب مع بعض السكان ومن بقى منهم قد قتل أو أخذ أسيراً وشحن دوريا في مراكبه سبعة آلاف نفس من النساء والأطفال ، انها أعمال لصوصية رهيبة ومنها ما يدل على ما بلغته طرابلس من ازدهار ، فقد بلغت الغنائم أرقاماً كبيرة جداً بالنسبة لذلك الوقت .

وإذا صدقنا ما قاله الفلورنس فيلاني بأن المشاركين في الحملة قد اقتسموا ١,٨٠٠,٠٠٠ فلورين ذهبي بدون النظر إلى ما أخفاه لنفسه كل عضو في الحملة ابتداء من المجدفين إلى المشرفين والمتعهد وصاحب الشواني .

وإذا كانت الأرقام صحيحة فإن طرابلس في تلك الأيام كانت غنية جداً .

ليست لفيليب دوريا أية قدرة على الاحتفاظ بملكية تحتاج إلى قوات كبيرة للدفاع عنها ضد غارات عربية محتملة ، ولذلك فكر في التخلص منها في أقرب وقت ، خاصة وأن المدينة التى ولد بها (جنوة) قد سارعت إلى استنكار أعماله ونفيه مع كامل أعضاء المعونة حتى تتبرأ من تهمة التواطؤ معه ولتفادى الانتقام من الجنوبيين المقيمين في مدن أخرى بالمغرب .

وأسرع دوريا إلى الرضوخ إلى الحاج أبي العباس أحمد بن مكى صاحب قابس وباعه طرابلس بمبلغ كبير دفع بعضه الأمير من ماله الخاص .

ولم تكن انعكاسات الأعمال القرصنية التى قام بها دوريا خطيرة كما كان يعتقد فطرابلس عندما هوجمت كانت في يد غاصب وصفه دانتزيو بالحداد المسلم الجشع ، وهى لذلك في حالة عداء مع أمير تونس الأمر الذى خفف من نقمة هذا الأمير ، على أن دوريا لم يشجع من قبله كما قد يشتبه فيه . وكان العطف على الطرابلسيين الذين أسروا وبيعوا عبيداً في أسواق النخاسة شديداً وجعل هذا الخبر العلاقات التجارية بين المسيحيين ومسلمى أفريقية صعبة لبعض الوقت .

وظلت طرابلس لسنوات قليلة في حكم أمير قابس الذى افتداها وحكمها من بعده ابنه إلا أن الانقلابات الكثيرة التى اندلعت في طرابلس سنة ١٣٧٠ جاءت بأحد أبناء بن ثابت المغتصب السابق ويدعى أبو بكر فاستولى على السلطة وكان أبرخ من والده فبعث إلى سلطان تونس بالبيعة ورفع إليه الأموال فاعترف لـه السلطان بالولاية على طرابلس .

10

ومهما كان من أمر فإن سلطان تونس لم يتوقف أبداً من الاعلان أنه سيد لطرابلس والواقع أن اتفاق التجارة الذى عقدته البندقية سنة ١٣٥٠ م مع حاكم طرابلس وقابس وسفاقس وجربة وقرقنة لم يذكر اسم سلطان تونس ، ولم يمر وقت طويل حتّى استعاد السلطة العليا . ولهذا الاتفاق أهمية كبيرة إذ يرسم الحدود الشرقية للمملكة وقد جاء فيه أن للبنادقة الحق في الملاحة والتجارة من مصراتة إلى سفاقس ، وقد منحوا في تلك الوثيقة الحق في الحصول على فندق في طرابلس (أهم مواد التصدير من البندقية هى الزجاجيات في شكل كؤوس وأكواب وأباريق ولا يقتصر على بيع هذه المواد في بل تنقلها القوافل إلى فزان وإلى ما وراءها) والاحتفاظ بقنصل له صلاحية قضائية على جميع أعضاء المستوطنة وعلى أولئك البندقيين أو رعايا البندقية الذين يصلون بحراً . وتتحدث الوثيقة نفسها عن تسهيلات جمركية وخاصة بالنسبة للتزود بملح الطعام .

ونفهم من تلك الوثيقة كذلك أنه احتراساً من هرب البحارة المسيحيين فقد جرى العمل في طرابلس وغيرها من الموانيء على نزع المجاديف والقلاع من كل سفينة قادمة لمنعها من السفر فجأة وقبل دفع ما عليها من رسوم جمركية . واستطاع برنابو جيرالدو المبعوث البندقي الحصول على الموافقة بإلغاء هذا الاجراء غير المشرف وتعويضه بضمان مالى .

وهناك شيء آخر ملحوظ ذلك هو الموافقة للبنادقة بسك العملة الذهبية بطرابلس وبختم الأمير (وهذا ما كان يسمى بزنطى عربي) .

ولكن العلاقات الطيبة كثيراً ما كان تكدرها الأعمال القرصنية ومن الجدير بالملاحظة أن القرصنة عادت تمارس من قبل المسلمين ، وقد توقفت منذ القرن الثالث عشر وقد وقد وجدت أوكارٌ حقيقية للقرصان في القرن الرابع عشر لاعلى طول السواحل الجزائرية في بجاية وعنابة بل حتّى في المغرب الشرقي بالمهدية وطبرقة وقرقنة وطرابلس ، ويتوغل

القرصان حتى السواحل الايطالية ينزلون عليها نهباً وسلباً ويهاجمون السفن التجارية ويقيمون الأسواق لبيع العبيد من المسيحيين .

ومنذ سنة ١٣٦٢ وبعد احتجاجات عديدة يائسة أرسلت البندقية سفيراً لها ليقدم احتجاجاً رسمياً على الاعتداءات والاستيلاء على المراكب والقبض على البحارة من قبل رعايا سلطان تونس وطرابلس وليطلب التعويض عن الأضرار الناجمة عن ذلك .

ولدينا ما يفيد ، بعد سنوات قليلة مما تقدم ، بأن البيسانيين والارقونيين بصقلية بعد أن أزعجتهم اعتداءات القراصنة أرسلوا إلى تونس سفيراً ليطلب تحرير الأسرى ولتجديد الاتفاق التجارى على أسس جديدة . أما جنوة فقد نظمت سلسلة من الرحلات لخفر السواحل من طرابلس إلى الجزائر وكحماية لشواطئها ، واستولت في كثير من المرات على سفن القراصنة ، وأرسلت هى أيضاً إلى تونس سنة ١٣٨٣ سفراء من أجل اطلاق سراح أسرى من الطرفين .

ومع استمرار الغارات القرصنية قامت محاولات للاتفاق بين مختلف الدول البحرية لضرب تلك الأوكار ، إلا أن المنافسات بين جنوة والبندقية أبعدت هذه عن الدخول في الحذف وقد سبق لها أن تعهدت بتقديم خمسة من الشواني ، وجهز للحملة من بيسا أصحاب السفن الخاصة بخمسة من الشواني ، أما الملكة مارية الارقونية فقد ولت منفريدى دى كبارامونتى قيادة ثلاثة شوان لعمل حاسم ، وقدمت جنوة أثنى عشر شينيا إلى شقيق روفائيلى آدورنو ، وبذلك فقد كانت الحملة جماعية بالرغم من أن مصالح الدول المشتركة كانت متباعدة ، والصقليون استهدفوا استفادة امتلاك جربة أما الجنويون والبيسائيون فكانوا يأملون ضرب أوكار القراصنة والحصول على تعويض عن الأضرار التى لحقت بهم ، وفي الوقت المناسب انسحب الجنويون من الحملة عندما دفع لهم السلطان تعويضاً كبيراً ورد إليهم مصاريف التجهيز والتسليح وتبعهم في ذلك البيسائيون ، أما الصقليون فانهم نزلوا في جزيرة جربة حيث تقلد كيارا مونتى ملكية الجزيرة سنة ١٣٨٨ م .

ووجدت طرابلس نفسها مرة أخرى ملجمة وتجربتها عاجزة بما فرضه وجود الحامية الصقلية بجربة غير أن امتلاك الجزيرة بدون التصرف في قوة بحرية دائمة يبقى خالياً من

أية قيمة ، لذلك عادت القرصنة تفتك بعنف وتحولت قليلا نحو الغرب وانزلت الأضرار حتى بالسواحل الفرنسية ، وأثارت هذه الغارات غضب شارل السادس ، وأرسل إليه آلجنويون السفراء يدعونه إلى التعاون معهم لمكافحة هؤلاء اللصوص . وعقد الاتفاق فوراً وفي هذا الوقت كانت فرنسا تستعد ليسط نفوذها على جنوة وأخذت هذه الحملة مظهر الحملة الصليبية ضد الكفار إلا أنها في حقيقتها كانت تستهدف استعادة ضمان تجارة جنوة في البلدان الافريقية .

قاد الاسطول جوفاني شنتوريوني وقاد قوات الانزال دوق بريون عم الملك شارل السادس وتتألف هذه القوة من فرسان فرنسيين من بينهم الفارس المغوار كوسى ، والتحق بهذه القوات كونت دربي وغيره من فرسان الانجليز ، إذ وقعت قبل هذا الوقت بقليل هدنة بين فرنسا وانجلترا (١٣٩٠) واتجهت الحملة لا إلى طرابلس بل إلى المهدية وكانت تعتبر أخطر وكر للقرصنة ، واستطاعت هذه المدينة أن تصمد للمداهمة بفضل ما وصل إليها من نجده أمير تونس والقبائل المغربية التى أسرعت إلى النجدة بقيادة ابن أوْ حفيد الأمير وتحملت قوات الانزال هجمات متكررة من هذه القبائل .

وبعد شهرين من الحصار والقتال وجدت الحملة نفسها في وضع سيء إلا أن الجنويين عرفوا كيف يستفيدون من الوضع باستمالة ملك المهدية ليجنح إلى الاتفاق والالتزام بدفع مبلغ كبير لمدينة جنوة في فترة خمس عشرة سنة تعويضاً عن الأضرار التى أصابت هذه المدينة بفعل القراصنة . وأضطر الفرنسيون إلى الانسحاب مع بالغ غضب الملك شارل .

وإذا كانت جنوة قد استطاعت أن تسوى خلافاتها مع أهم ملوك المغرب الشرقي فان البسانيين والصقليين قد وجدوا أنفسهم معرضين إلى حرب قرصنة شديدة ومدمرة من قبل رعايا ملك تونس وشهدت صقلية تجدد الغارات والدمار وتفشى القراصنة التونسيين والطرابلسيين في جنوب بحر ترينو ، وجعلوا الملاحة فيه مغامرة خطيرة ، وهوجمت جزيرة جربة وأعاد الكفار (١) احتلالها ، وفي طرابلس والمهدية وتونس وقابس أحيل الايطاليون المقبوض عليهم في البحر أو على السواحل إلى العبودية وكانوا كثيرين ودمرت سيراكوزة ونهبت .

---

(١) يعنى المسلمين .

سعت المدن الايطالية لابرام اتفاقات مع ملك تونس ولم يكن ذلك سهلا ، وفي سنة ١٣٩٧ فقط استطاعت بيسا أن تعيد فنادقها وتسترجع رخصة التردد على مواني الدولة (بما في ذلك طرابلس) بالسفن التجارية ويشترط أن يكون القنصل نفسه هو المسؤول عن الأضرار التي يحدثها مواطنوه ، وتم لها ذلك بعد أن استنكرت مساهمة مواطنيها في الحملات السابقة .

أما البندقية فظلت بعيدة عن الحرب واستطاعت الحصول على تجديد الاتفاقات السابقة بسهولة ويسر (١٣٩٢) كما تمكنت من تحرير عدد صغير من البندقيين أو من رعايا الجمهورية الذين استولى عليهم القراصنة ودفعت مبلغاً كبيراً لتحريرهم في شكل منحة .
وبالنسبة لصقلية ، فقد أوفد مرتينو دارقونة الكبير ، وكان يحكم الجزيرة باسم ابنه مرتينو الاول ، السفراء عدة مرات للتفاوض على بعض الاتفاقات ولكن ذلك لم يكن ممكناً بسبب الأحوال الداخلية في مملكته من جهة ولمسألة احتلال جربة المعكرة للجو من جهة أخرى إلا أنه عندما خسر الملك الجزيرة على أثر انتفاضة من سكانها ، حاول اعادة الاستيلاء عليها مفاوضاً في ذلك أمير طرابلس ، وقد كان هذا كالعادة متمرداً على سلطان تونس وقد اتي به سكان جربة .

أما الخبر الذى نجده في الوقائع الصقلية والذى يفيد بأن علم ملك صقلية قد رفع في طرابلس سنة ١٣٩٣ فأنه يعود بكل تأكيد إلى هذه الفترة ، ولكن وقوع الحادث نفسه أمر مشكوك فيه ، وعلى الرغم من ذلك فلا يستبعد أن الأمير المتمرد قد استنجد بالملك مارينو ورفع علمه ليحمى نفسه من هجوم أمير تونس عليه ، ولكن الملك أوفد بدون شك بعض السفراء في تلك المناسبة ولم يكن قادراً على ارسال مساعدات ولذا يمكن التفكير بأن الحكم الصقلى على طرابلس كان قد اقتصر على رفع مؤقت للعلم .

ونعلم في الواقع أنه خلال فترة حكم مارتينو الشاب الذى تولى الحكم سنة ١٣٩٥ وبعد أن خسرت جزيرة جربة نهائياً قد فاوض من أجل السلام أو بالأحرى من أجل الهدنة ، أمير تونس الذى استعاد في هذا الوقت حكمه على طرابلس ، ولم يسفر التفاوض عن حل نهائي . وعندما جمع الملك الفونسى داراقونة فوق رأسه تاجى نابولى وصقلية عادت الحرب بين مملكة صقلية وتونس شديدة متجددة ، وقاد نائب الملك ووالى صقلية بييترو داراقونة الحملة البحرية بنفسه ولكنه لم يتوصل إلى هدف اعادة احتلال جزيرة جربة

فأغار على قرقنة ونهبها وهدد بعد ذلك تونس وأجبر الأمير على اطلاق سراح المسيحيين رعايا صقلية ونابولى الذين وقعوا في الأسر بتونس (١٤٢٤) ولا نعرف إذا جرى التسريح مقابل فدية أو بدونها .

وفيما بعد قاد الملك ألفونسى نفسه حملة ضد جربة إلا أن النجدات التي وردت إليها فوراً من ملك تونس أجبرت الفونس على الانسحاب ، ويظهر أن الملك رأى ضرورة استئناف مفاوضات السلام بعد هذه الهزيمة ، ولا نعلم ما تمخضت عنه .

من الوثائق التى نشرها أمارى وماس لاترى وغيرهما عن هذه الفترة يستحق أن نذكر تلك الوثائق التى تتحدث عن وجود خطوط ملاحة حكومية منتظمة بين المدن البحرية الايطالية ومملكة تونس مع حق استعمال مرفأ طرابلس لتوقف قصير .

ويبدو أن أول من أنشأ هذه الخطوط هم البنادقة الذين اعتادوا كل سنة وفي بداية الموسم الجديد طلب المزايدة على وضع عدد من الشواني التجارية ، تحت أمرة مقدم ومسلحة بشكل تستطيع به الدفاع عن النفس إذا ما هوجمت من قبل القراصنة ، لتعمل على نقل البضائع وتتجه بها إلى موانيء متفق عليها سلفاً في مواعيد معينة وإلى مرافيء محددة بكل دقة ، ولتعود بعد ذلك إلى البندقية في مواعيد محددة كذلك ومحملة ببضائع أخرى من الموانيء التى توقفت بها .

ويسمى هذا النوع من الرحلات « مودة » وفي العادة تبحر رحلتان في السنة الواحدة إلى كل المقاصد التالية : البحر الأسود ، القسطنطينة ، مصر ، شمال أفريقيا ، فرنسا ، فياندر ، انجلترا .

وتهمنا هنا فقط مودة شمال أفريقيا والتى ترسو في سيراكوزة وطرابلس وجربة وتونس وبجاية والجزائر ووهران وبنيونش (١) ، والمغرب ، وقد فرض على المودة في طريق العودة أن ترسو بميناء أوميناثين من موانيء أسبانيا بالبحر المتوسط وأن تتوقف في تونس وتعود بعد ذلك مباشرة إلى موطنها .

وفي العادة وفي الظروف السلمية فان المودات التجارية التابعة للبندقية ترسو في ميناء طرابلس مرتين في كل سنة ، وتفرغ حمولتها من الدمقسى والفوستاني (٢) (وهو قماش

---

(١) بنيونش واسمها بالاسبانية Penon de Velez de la Gomera.
هى أربع جزر كبيرة تجاه مدينة الجزائر .

(٢) تعنى هذه الكلمة اليوم ثوب السيدات حتى اذا كان من الحرير الخالص المطعم – بالجواهر ، مع أن الفستان هى كلمة ايطالية تعنى القماش القطنى الرخيص . (المعرب)

شعبي) والأقمشة الأخرى المتنوعة المستوردة في الغالب من لومباردية وتشحن بدلا من ذلك زيت الزيتون والتبر وريش النعام والشمع النحلي وغير ذلك من البضائع الليبية والفزانية

وعلاوة على ذلك هناك خط آخر يسمى خط الترافق (١) ويصل هذا الخط إلى أهم المراسى في المغرب ويربطها بالاسكندرية في مصر وتعمل به بعض الشواني التجارية وتكون في الغالب اثنتان فقط ، تغادر البندقية إلى الاسكندرية حيث تفرغ حمولتها من بضائع البندقية وتشحن البضائع المتجهة إلى طرابلس وتونس والجزائر ثم ترجع من حيث أتت تنقل إلى مصر بضائع المغرب وأخيراً تشحن من الاسكندرية البضائع المحمولة إلى ايطاليا . ويسافر على هذه الشواني الحجاج المغاربة المتجهون إلى مكة أو العائدون من الأراضى المقدسة .

وكان سلطان مصر وأمراء أفريقية يعلقون أهمية خاصة على هذين الخطين الملاحيين وخاصة خط الترافق الذى يشكل أكثر الخطوط أمناً وأكثر وسائل النقل اقتصاداً بين الموانيء المصرية والمغربية ، ومعلوم أنهم يحاولون تفادى التورط العسكرى الذى قد يسبب في انقطاع الحركة الملاحية .

وتتصرف البندقية طبقاً للمعلومات التى يزودهابها قناصلها ، فتسمح أو تمنع رخصة الابحار ولتكون أكثر دقة تستثنى من المزاد العلنى تلك الخطوط أو الموانيء المعرضة لخطر العدوان بالقبض على السفن .

ومن المفيد الإضافة أنه عند افتتاح المزاد لا يتقدم إليه أحد لأن المقاولين يخشون مخاطر الحرب ، وعند ئذ يمنح مجلس الشيوخ جوائز ايجار ، أى بدلا من قبض أجرة تأجير الشواني وهى ملك لدار الصناعة ، يدفع إلى المقاولين مبالغ لتشجيعهم على الإبحار وفي بعض الحالات يمنع الإبحار إذا كانت أخطار الحرب واضحة غير مشكوك فيها

استمرت هذه الخطوط طوال القرن الخامس عشر وحتى السنوات الأولى من القرن السادس عشر ، ولكن تفشى القرصنة والفقر الذى حل بالبلاد والحروب المشئومة التى اكتوت بها البندقية ، وفوق كل ذلك احتلال أسبانيا لطرابلس وبعض الموانيء الأخرى

---

(١) خط الترافق هى تعريب Linea di Traffico ويظهر أن Traffico أخذت من كلمة ترافق العربية – (المعرب)

كما سنرى فيما بعد ، جعلت البندقية توقف هذه الخدمات ثم تلغيها ، ونذكر في هذا المجال أنه بعد سنوات قليلة من الاحتلال الأسباني لطرابلس أى في سنة ١٥١٨ أصدر مجلس الشيوخ إلى سفيره ببلاط شارل الخامس الأمر ليرفع احتجاجاً ضد التعريفة الجمركية المفروضة في وهران وطرابلس من قبل الحكومة الأسبانية تلك الرسوم التى جعلت نقل السلع أمراً مستحيلا . ومن المعلوم أنه إذا كان الرسم ١٠٪ عن القيمة مقبولا عندما كانت بلاد افريقية مستقلة فان رفع الرسم إلى ٢٠٪ أو أكثر أحياناً يصبح مدمراً .

ولم يتبين أن لجنوة خطوطاً بحرية ثابتة وأسلوبها يختلف تماماً عن البندقية والملاحة فيها حرة وفي يد الأفراد ، وهناك ما يفيد أن كثيراً من سفنها كانت تتردد على ميناء طرابلس ، على أن هذا التردد لم يكن دورياً ولم تنظمه أحكام خاصة :

ولدينا كثير من الإشارات عن وجود حركة واسعة للجنويين على سواحل المغرب ويكفى الاشارة إلى مذكرة احتجاج قدمها سنة ١٤٥٢ في جنوة مبعوث السلطان أبو عمر حاكم تونس ، وجاء فيها ، بالاضافة إلى حالات احتيال خطيرة أنزلت الضرر بالمسلمين من قبل أصحاب المراكب الجنويين ، ذكر حادث مقدم سفينة شحنت قمحاً من تونس لينقل إلى طرابلس لحساب بعض التجار العرب ، لكن المقدم اتجه به نحو جنوة وباعه لفائدته وتدل هذه الحادثة على أن خدمات النقل من وإلى طرابلس كان يشارك الجنويون في القيام بها . وهناك شكوى أخرى تتعلق بعملة زائفة روجها بعض الجنويين في صفاقس وتونس .

أما فلورنس ومنذ أن ضمت إليها بيسا وليفورن سنة ١٤٢١ فقد اتبعت جزئياً النظام البندقي وزاحمته بدون مراعاة .

وقد أسست مفوضية البحر ، وهى الجهاز الذى يتولى كامل الخدمات البحرية خطين بحريين لشواني الترافق ، أحدهما لأعالى المغرب ، وهذا ما يهم هذا البحث ويتوقف في كل من قائيطا ونابولى وساليرنو ، وباليرمو ، وتراباني (سماها العرب طرابنش) وتونس وطرابلس وهذا الخط يشحن بالاضافة إلى المنسوجات وغيرها من طوسكانة إنتاج ايطاليا الجنوبية وصقلية ويتولى نقلها إلى الموانيء الرئيسية بالمغرب الشرقي ، وفي مقابل

ذلك يشحن إلى صقلية وإلى نابولى وطوسكانة ، الشمع النحلى والجلود والتمر وريش النعام والتبر وغير ذلك .

أما الخط الثاني المسمى افريقية الغربية فيمر بفرنسا المتوسطية وبرشلونة وجزر الباليار والمغرب والجزائر وفي وقت لاحق وبعد انقطاع الخطين لمدة طويلة بسبب الحروب الايطالية وصعوبات أخرى ، عادت الخدمات بعد أن دمج الخطان في خط واحد واستثنيت طرابلس من هذا الخط ربما لان هذه المدينة كانت تصلها الشواني البندقية ولا توفر مجالا للمتنافسين .

ونجد في ملحق البراءات العربية بدار المحفوظات في فلورنس التى نشرها ميكيلى أمارى ، قائمة موانيء الخط الجديد وتلخصت بالنسبة لافريقيا في موانيء تونس وعنابة والقل وبجاية ووهران وعون والكد ، أى كل موانيء الجزائر والمغرب ، ومن المغرب الشرقي مياه تونس فقط ، وبدراسة سلسلة الاتفاقات التى عقدتها مدينة فلورنس ابتداء من اتفاق سنة ٤٢١ — ١٤٢٣ وهو الأول نرى أن هذه المدينة قد حلت محل بيسا في كل ما كان لها وحتى في امتلاك الفنادق والصلاحيات القنصلية ويعتقد أن فندق وقنصلية طرابلس قد استوعبتها فلورنس ضمنياً .

12

اقترب عهد جديد لأفريقية ، عهد الاحتلال الأوربي وما زالت آخر بقاياه في المغرب حتى هذا التاريخ .

وكما هو معلوم فان البرتغاليين في عهد الملك جوفاني الأول احتلوا سبتة وقد حركتهم النزعات الدينية والأغراض التجارية والسياسية للقيام بدلك ، وفي هذه المدينة أسسوا قاعدة برية وبحرية ضد الكفار (يعنى المسلمين) في ١٤١٩ واحتلوا بعد ذلك طنجة ومواقع أخرى حصينة على سواحل الأطلسى والمتوسط . وتبعهم القشتاليون وكانوا في حرب ملوك المسلمين في غرناطة ، وحاولوا احتلال بعض المواقع على الساحل المغربي ولكنهم لم ينجحوا في البقاء طويلا إلا عندما قامت وحدة بين تاج قشتالة وتاج ارقونة بزواج ايزابيلا وفرديناند ، ونمت القوات تبعاً لذلك وسهلت احتلال مليلة وبعض المواقع الأخرى (١٤٨٢) والتى صارت بعد ذلك قواعد بحرية لحرب صليبية تسنهدف قطع الاتصال بين مسلمى أسبانيا ومسلمى أفريقيا .

وبعد سقوط غرناطة فإن الحملات قد تواصلت بتحريض من الكاردينال خمينس وعلى أثر انتفاضة غرناطة في بداية القرن السادس عشر . احتلت المواقع في المرسى الكبير وبنيونش (١٥٠٥) الواحدة تلو الأخرى وجاء بعد ذلك دور وهران (١٥٠٩) وبجاية (١٥١٠) وغيرهما من الموانيء الجزائرية . أما الجزائر نفسها فقد عرضت دفع جزية وقدم سلطان تونس نفس العرض ، وامتد الخوف من السلاح الأسباني إلى نابولى وصقلية وسردينيا وإلى كل أفريقيا .

وشعرت طرابلس وهى من المدن الأفريقية الشرقية بشدة وطأة الحكم الأسباني لمدة طويلة وقد خلف آثاراً عميقة .

وقد ربطت الحملة على طرابلس بكل تأكيد بالحملات السابقة ، ولكن كانت لها دوافع خاصة ، ليست من تلك الحركة العامة التى بدأت بأسبانيا بل تعود إلى تلك المسألة القديمة والمتجددة المتعلقة بأمن صقلية والدفاع عن الجزيرة من القرصنة المغربية واتخذ الكفاح المتجدد بين المسيحية والاسلام في الشرق والغرب ذريعة لذلك .

وصحيح ان الحملة قد رفعت العلم الأسباني وقادها مقدمون أسبان وإنما هى في الواقع أداء ايطالى أو بالأصح صقلى . كانت قاعدة العمليات مدنية سيراكوزة ، واعدت مواد الإعاشة كما أعد السلاح والذخيرة في صقلية ، وأشرف نائب الملك بصقلية على أعمال التجهيز ، وقد تألف الأسطول من عشرة شوان وثلاثين سفينة من نوع كارافيل علاوة على خمسين أخرى للنقل مجهزة بالمدافع وعدد من الأباريق والفوستاو وبعض المراكب الأخرى الصغيرة كلها صقلية .

ولدينا تفصيلات هامة عن الحملة جاءتنا من التقرير الذى أرسله بدرو نافا رو في يوم ٢٠ يولية ١٥١٠ إلى نائب الملك في صقلية والتى وصلت إلينا حتى بواسطة يوميات ماريو سانوتو ، وأكثر من ذلك الرسائل التى بعث بها بتسينودى طونسيس وجيرولامو أدورنو التى نشرها ١٩١٢ ماريولونقينا . ونحن نعلم أن الأسطول أقلع متجهاً إلى طرابلس بعد أن حط في مالطة وانضمت إليه بعض الفوستات وبعض المرشدين الذين يعرفون السواحل المغربية معرفة جيدة .

ونعلم كذلك أن بين الشواني العشرة هناك اثنتين يملكهما أثنان من الجنويين، هما باتيستا وفالاتزو جوستينياني ، يقول دى طونسيس عنها قد سلحتا قسراً ويمكن تفسير التسليح قسراً باخضاعهما لأمر منع الاقلاع في موانيء صقلية ثم اخضاعهما لمرافقة الحملة ، ويبدو أن تسليحهما كان متمماً لقوات نائب الملك التى عرف بأنها كانت غير كافية .

ومن هذه الوسائل نفسها يتبين أن هناك بين المشاة والبحارة ثلاثة آلاف من المرتزقة الايطاليين وهم أولئك المغامرون الذين كانوا يعملون بكل الجيوش الفرنسية أو الأسبانية على حد سواء ، خلال القرن السادس عشر ، وقد استعملت الشواني لعملية قطر السفن ، وهى عملية قاسية ، بسبب الرياح المعاكسة . وبسبب قلة خبرة المرشدين والرياح المعاكسة

وشدة التيارات وجدت الحملة نفسها فجر يوم ٢٢ يولية (يوم القديسة مجدلين) بعيداً جداً عن النقطة التى تقرر النزول بها ، وأضاع الأسطول وقتاً كثيراً للوصول إليها . وعندما وصلت السفن المقطورة والشواني القاطرة إلى الموقع المقرر ألقى المشاة بأنفسهم في الماء تحميهم طلقات مدفعية السفن وكانوا قد نقلوا إلى الشواني وإلى المراكب الأخرى ذات الغاطس القليل . وفي وقت قصير نزل إلى الأرض ٦٠٠٠ رجل دون أن تقوم حامية طرابلس برد جدى . واقتصر تحركهم على الاستكشاف على ظهور الخيل وهم في حالة اضطراب بادية ، ولا يبدون نية الهجوم وترك قائد الحملة ثلاثاً من السرايا لحماية قاعدة الإنزال وأرسل ثمانية للهجوم ، ويبدو أنه أنزل بعض قطع المدفعية لضرب الأسوار وقد رد على قصفها بالعرادات والاقواس وقاذفات النشاب ، ونصب العلم المسيحى الأول بين القصر وباب العرب وعندئذ أقفل المدافعون عن أنفسهم القصر والمسجد الكبير ، بينما كان غيرهم يدافعون عن باب البحر لكنهم غلبوا على أمرهم بعد مقاومة عنيفة .

وكتب نافارو إلى نائب الملك في صقلية بمبالغة واضحة قائلا : لقد مات من العرب خمسة آلاف أو أكثر ، أما دى طونسيس ، احتراماً للحقيقة ، فقد أنقص خسارة العدو إلى ألفين ، أما الخسائر من المسيحيين وقد قال عنهم نافارو كانوا قليلين ، فقد ذكر طونسيس أنهم ١٥٠ شخصاً وتحدث نافارو عن الأسرى وقال بلغ عددهم ستة آلاف بيعوا في سوق النخاسة بصقلية ونقل الأمير عبد الله إلى صقلية وبقى أسيراً فيها . واستطاع غير هؤلاء من السكان الفرار نحو الواحات القريبة .

حكمت المدينة لجنة مؤقتة يرأسها قائد الميدان ، وجرى الاستيلاء على المراكب القليلة الراسية في الميناء والتى على تلك السفن التى وصلت بعد أيام قليلة إلى الميناء بدون أن تعلم بالتغيير القائم في البلاد .

قرر نافارو القيام بحملة بحرية للاستيلاء على جزيرة جربة بعد أن فشلت محاولة اقناع الحامية بها على الاستسلام وقد اعتبرت الجزيرة تابعة لطرابلس وهى قاعدة بحرية ممتازة في القناة التى تفصلها عن الأرض الثابتة ، نزلت القوات بجربة يوم ٣٠ أغسطس بعد استسلام نجدة من نائب الملك بصقلية ، وعند الهجوم على القلعة احتدم القتال فكان الحظ فيه سيئاً للمسيحيين إذ عم بينهم العطش وجار عليهم الحر وأنهكهم التعب ، فهجم عليهم العرب ،

وما كان من المهاجمين إلا أن يطلقوا سيقانهم للفرار ، ووصف هذه الكارثة كما وردت في رسائل دى طونسيس وحوليات فيرو كان له صدى مثير جداً في صفوف الجيش الأسباني . ويجدر أن نذكر قسوة البحارة الذين كانوا يردون الفارين من الجند بالسهام خوفاً من أن الماء الباقي لديهم لا يكفى لرحلة العودة .

وبلغ عدد القتلى والأسرى ألف رجل ، وأخطر من ذلك كله هو ما أصاب السمعة العسكرية الأسبانية من أضرار وحتّى الحامية الصغيرة التى تركها الأسبان في قرقنة ، وهى مرسى ممتاز للأسطول قد هجم عليها العرب بعد ذلك بقليل وقتلوا كل أفرادها . وتحمل الأسطول خسائر أخرى كبيرة عند العودة إلى صقلية بسبب العواصف .

على أن احتلال طرابلس قد عوض تلك الخسائر ، والحقت المدينة سياسياً واداريا بمملكة صقلية وعين عليها والٍ أشرف على تحصينها وتوسيع رقعة الأرض المحتلة فيها بالتفاوض مع السكان القاطنين في الواحات القريبة تارة وبالحرب معهم تارة أخرى .

ولم يفد النظام الاحتكارى الذى وضعته أسبانيا لمدينة طرابلس وحتّى إذا زاد من أهميتها كقاعدة بحرية إلا أنها فقدت كل ازدهار تجارى بعد غلق الميناء في وجه سفن الدول المسيحية الأخرى بالبحر الأبيض المتوسط .

13

طلبت البندقية دون جدوى من الملك فرديناند الكاثوليكي أولا ثم من شارل الخامس فيما بعد أن يسمح لمراكبها التجارية بالتجارة مع طرابلس وكما سبق أن ذكرنا فإن شواني النقل التابعة لجمهورية البندقية كانت تتردد على هذا الميناء وتقدم خدماتها إلى مختلف موانيء المغرب ، وعبرت حكومة البندقية عن الأضرار التي تنجم عن منع رسو مراكبها والمكاسب التي تجنيها أسبانيا من الرسوم على الاستيراد والتصدير ، وفشلت كل محاولة . ويمكن أن يقال من وجهة نظر تجارية أن احتلال طرابلس لم يساهم إلا جزئياً في خراب البندقية ، لانه في ذلك الوقت بدأت استفادة البرتغاليين من طريق الهند البحرية .

وأكثر من ذلك هنا عاملان خطيران اعطيا مظهراً جديداً للبحر الأبيض المتوسط فور احتلال طرابلس ، ومنعطفاً جديداً لتاريخ البحرية : اتساع قوة الأتراك العثمانيين من آسيا إلى أفريقيا باحتلال مصر – واستقرار خير الدين برباروسا ذلك القرصان الجريء الرهيب في الجزائر . وبالتعاون مع أخيه عروج احتل جزيرة جربة سنة ١٥١٣ وجيجل والجزائر وأعلن عروج نفسه ملكاً عليها ، ودحر كل الأساطيل الأسبانية التي أرسلت لقتاله (١٥١٦) . وبقى خير الدين ملكاً على الجزائر بعد موت أخيه ، وتقدم لطلب مساعدة وحماية السلطان التركي العثماني مبايعاً له سلطاناً على الجزائر متعهداً بدفع الخراج والمساعدة بالأسطول ، واستلم خير الدين في مقابل ذلك منشور التولية على أفريقيا .

ومنذ ذلك اليوم (نوفمبر ١٥١٩) لم يسلم أى مكان على طول السواحل المتوسطية الخاضعة لأسبانيا كما لم تسلم أية بلاد مسيحية تقع في الحوض الغربي للمتوسط من غارات الشواني والغلايين الجزائرية باستثناء فرانسا ، فقد انطلقت أخطر أشكال القرصنة من عقالها وانهدت ضد السفن التجارية التي تذرع المتوسط ، وتعرضت المدن والسواحل إلى غارات مفاجئة واقتيد الآلاف من المسيحيين إلى أسواق النخاسة في أفريقيا .

وبينما كانت أساطيل أسبانيا وأساطيل ممتلكاتها في ايطاليا وخاصة أساطيل نابولى وصقلية تحاول في تطوافها عبثاً كبح ذلك العنف إذا لم يتيسر لها قمعه كانت طرابلس تشكل بالنسبة لأسبانيا قاعدة بحرية عظيمة وهامة وحصناً قيماً ، ولكن قد التهمت الأسبان مشاكل أخرى فاقتصروا على حماية طرابلس ولم يستخدموها كما يجب ولم يدافعوا بما فيه الكفاية عن جزيرة جربة (عادت إلى حكمهم بخديعة مفاجئة سنة ١٥٢٠) كما لم يدافعوا عن البنيونش والمواقع المحصنة الأخرى في المتوسط .

وفي سنة ١٥٣٠ قد أسند الدفاع عن طرابلس إلى منظمة فرسان المستشفى أو كما كانوا يسمون فرسان القديس يوحنا ، وكانوا قد منحوا ملكية جزيرة مالطة (وهي اقطاع لمملكة صقلية) بعد أن طردهم الأتراك من جزيرة رودس وبعد مقاومة عنيفة (١٥٢٢) .

وتحدثنا الأخبار التاريخية للمنظمة انه منذ سنة ١٥٢٤) بحث مخطط استقرار الفرسان في طرابلس ، ولهذا الغرض ارسلت لجنة مؤلفة من ثمانية من الفرسان لزيارة قاعدة طرابلس وتقديم تقرير عن التحصينات ، وهذا التقرير المقدم هام إذ يبين أن أعمال التحصين وخاصة جهة البحر التي قام بها الأسبان لم تكن قادرة على المقاومة بوسائل مماثلة لتلك التي استعملها الأتراك في حصار رودس .

وفور امتلاك المنظمة لطرابلس اندفعت بنشاط في أعمال التحصين وتوسيع دائرة أعمالها على طول الساحل وفي دواخل البلاد ، وهنا وجد الفرسان عقبة كأداء أمامهم في شخص قرصان شهير هو خير الدين كرمان المعروف بطارد الشياطين وقد استقر هذا في تاجوراء وبدأ يتحرش بطرابلس واتفق الفرسان مع مولاى حسن ملك تونس وجهزوا حملة كانت سيئة الحظ ، وعندما احتل بربروسا تونس أصبحت الأحوال في طرابلس أشد خطراً .

وفي تلك الأثناء أنشأ الفرسان سرية بحرية صغيرة اشتركوا بها في حملات بحرية أخرى لحماية المتوسط من القرصان وانضموا سنة ١٥٣٥ بهذا الاسطول الصغير إلى الحملة التي قادها أندريا دوريا لطرد بارباروسا الرهيب من تونس .

لقد نجحت الحملة كما هو معلوم إلا أن رفاق برباروسا هربوا من تونس واستقروا في تاجوراء فزادت بذلك العراقيل أمام توسيع المنشأة المسيحية في طرابلس ، ففى سنة ١٥٣٦ تعرضت هذه الحامية إلى خطر هجوم خير الدين ، طارد الشياطين ، عليها ودهمها خطره فجأة وكادت أن تقع في أيدى المهاجمين ، على أن هذا الخطر قد أقنع المنظمة بأن ترسل من مالطة تعزيزات هامة للدفاع عن ذلك الرباط المسيحى وجاء على رأس هذه القوة ايطالى يدعى بوتيجيلا ، الذى نصب بعد ذلك والياً على طرابلس وقد استطاع هذا الاستيلاء على قلعة القائد وهى رباط قوى بناه كرمان بالقرب من طرابلس وعلى طريق تاجوراء .

ولكن هذه القلعة سقطت بعد وقت في يد الكفار (يعنى المسلمين) بفضل ما أبداه مراد أغا من جهد ، وهو من أصل ايطالى مرتد عن المسيحية وكانت هذه القلعة مصدر إيذاء شديد لطرابلس حتّى أن الفرسان استنجدوا بشارل الخامس لارسال التعزيزات لتكون المدينة قادرة على مقاومة الهجوم وهددوا بترك المدينة في حالة الامتناع .

ويبدو أن الوالى باريسو دى لافاليت الذى تولى فيما بعد رئاسة المنظمة قد أجرى أعمالا هامة واقترح على المنظمة نقل مركزها من مالطة إلى طرابلس ، وكان يعتقد أنه يمكن الصمود بشكل أفضل من هذه المدينة ومقاومة موجات العنف الشديد والمذابح التى يقوم بها الأتراك حلفاء فرنسا وبمساعدة قوة القرصان المغاربة الذين أخذت تتفشى أعمالهم في قلب البحر الأبيض المتوسط وخاصة بعد المعركة المشؤومة له بل قل بعد فرار القوات المسيحية من ميناء بريفيا وهزيمة الأسطول المسيحى في الجزائر .

وازداد قلق شارل الخامس فأمر أخيراً بتقديم مبلغ مالى كبير لأعمال التحصينات إلا أن السفينة التى نقلت هذا المال وقعت في يدى درغوت باعث الرعب في المتوسط ولم تنفذ نتيجة لذلك أعمال التحصين .

14

لقد ازداد الخطر على طرابلس بعد فشل محاولة أندريا دوريا في جزيرة جربة بفضل براعة درغوت البحرية ، وكان قد أقام فيها وكره (١٥٥١) ، وازداد الخطر على طرابلس هذه الواحة المسيحية في صحراء بربرية ، كما كانت تسمى بحق ، وتحيط بها دول وأقوام مسلمون وأعداء وتتصدى المدينة بصعوبة بالغة للحشود العربية المنقضة حتى الأسوار .

ودرغوت ، وهو العدو العنيد الذى تنازعه الشهية لامتلاك تلك المدينة التى كانت غنية جداً ذات يوم ، لم يترك وسيلة للاستيلاء عليها وزادت رغبته بعد وفاة سيدهالقديم ومعلمه برباروسا ، وفي حين كان يعد العدة لها جمة طرابلس كان يشن الغارات سنوياً وينهب السواحل الايطالية ويفلت بكثير من الحذق من ملاحقة الأساطيل الأسبانية والصقلية وأسطول نابولى وجنوة العامل لحساب أسبانيا .

ولكن قواته غير كافية للحملة على طرابلس فاستعان بسيده السامى سلطان القسطنطينية وحصل على موافقة قيام الأسطول التركى العظيم بقيادة سنان باشا بالحملة على طرابلس سنة ١٥٥١ .

ظهر الأسطول التركى العظيم أمام طرابلس بعد أن حاول حصار مالطة دون فائدة وقد سبق له أن حاصرها قبل ذلك بسنوات قليلة ، ولم يجد الاسطول التركى أى تصدّ المسيحية ، وليس هذا هو المجال لمناقشة مسؤولية المعلم الأعظم دوميد الأسباني حول عدم كفاية النجدة التى أرسلت إلى دى فالبير حاكم طرابلس ويكفينا أن نذكر إنه للدفاع عن المدينة ومساعدة للفرسان فقد عززهم ببعض المئات من مشاة « كالابريا » وهم حسبما تقول بعض المصادر ، ليسوا أبطالا في القيم والشجاعة .

ولا تتوقف كذلك عند تصرف دارامون الفرنسى الذى أرسله ملك فرنسا حليف الأتراك إلى السلطان الذى وافق على الذهاب إلى سنان باشا لاقناعه بالتوقف عن الحملة

ولكنه اقتصر على حماية الفرسان الفرنسيين ولم يأبه لعمليات الحصار التى كان يقوم بها سنان مع نائبه درغوث ، وأخيراً ليس هذا مجالا لمناقشة ما أكده نيكولاى وهو شاهد عيان ، أن سقوط طرابلس يعود إلى خيانة جندى فرنسى وأن الصقليين والكالابريين قد تمردوا وطلبوا بأعلى صوت الاستسلام مهددين بالفرار إلى صقلية ولكن المفيدالتوقف للنظر في موقف أسطول أسبانيا وأساطيل ممتلكاتها الايطالية وأسطول جنوة المستأجر الذى يقوده اندريا دوريا حيث لم يتقدموا لنجدة المحاصرين على الرغم من معرفة خبر الهجوم على طرابلس منذ وقت طويل ومن دوام حصارها عدة أيام ، وترك طرابلس تسقط بدون حتى التلميح بالهجوم على الأسطول التركى يدل على الضعف الشديد الذى أصاب البحرية المسيحية في المتوسط وهو برهان جديد على الآثار المؤلمة لسياسة شارل الخامس البحرية ، ونتيجة وليست الأخيرة لخطأ اندريا دوريا المشؤوم في ميناء بريفيا .

إن مذبحة الحامية العربية والقبض على الجنود الإيطاليين واسترقاقهم خلافاً لعهد الاستلام كل ذلك يعود إلى فساد ذمة التركى أو كما يقول نيكولاى إلى نصيحة درغوث .

وفي البداية لم ينل درغوث ما كان يتوق إليه في امتلاك المدينة فقد عين سنان للقيادة مراد أغا وهذا قرصان آخر ساهم في حصار المدينة (١٥٥١) .

حاولت المنظمة استعادة طرابلس سنة ١٥٥٢ وقد أعد للحملة البطل ليوني سيروزى المعروف باسم مقدم كابوا « كان قائد الأسطول الفرنسى الذى شارك مع الأتراك في الحرب ضد أسبانيا وكان يحمل اسم فرانشيكوالأول » وتألفت هذه الحملة من جنود أغلبهم من الايطاليين ومن فرسان ايطاليين وفرنسيين وكانوا تحت أمرة لافاليت وهو الذى عين معلماً أعظم للمنظمة فيما بعد .

وقاد شييون سيروزى حفيد أمير البحر شلة من المتطوعين الايطاليين والمدفعيين المرتزقة ونزلت هذه القوات قرب زوارة واحتلت المدينة وهنا تعرضت الحملة لهجوم بقوات متفوقة على رأسها مراد آغا واضطرت إلى الانسحاب بعد أن منيت بخسائر فادحة وقد جرح ليوني سيروزى نفسه وتميز الفرسان الطليان أثناء الانسحاب .

وفي هذه السنة نفسها التى هاجم فيها درغوث سواحل كالابريا ونهبها وعاد إلى

طرابلس بعدد كبير من الأسرى عين والياً على طرابلس وتعهد بدفع الخراج والمساهمة بالسفن والسلاح في الحملات التركية .

كان درغوت يخرج كل سنة للقرصنة لحسابه أو بالاشتراك مع الأسطول التركى وينزل بالبحرية والسواحل الايطالية خسائر كبيرة جداً ، لقد استولى على سفن من البندقية وجنوة ونابولى ونهب مدينة ريجو وسورينتو وقبض على قائد الشواني الصقلية ووضعه مجدفا في سفينة القيادة واستطاع درغوت ببراعته أن يفاجىء أندريا دوريا ، الشيخ المسن ، نفسه واستولى منه على سبعة من الشواني فظل يقف بالمرصاد لشواني منظمة مالطة وملأ طرابلس بالأرقاء من المسيحيين وكان أغلبهم من الايطاليين ولم تكفهم السجون حتى بعد أن بيع بعضهم إلى الناس وبعد الهدية التى أرسلت إلى استانبول من الجنسين وافتداء عدد كبير منهم بأسعار عالية جداً لا تتناسب مع الأسعار السائدة .

وتعين درغوت كذلك في قيادة الأسطول التركى (١٥٥٣) وساهم في انشائه منذ البداية بثمانية عشرة بين شينية وغليون وأضاف إليها بعد ذلك ضعف هذا العدد من المراكب وفي هذا ما يدل على قوة البحرية الطرابلسية وشارك في انشاء بحارته السكان المجاورون لغريان وترهونة وبنى وليد ، علاوة على سكان جربة التى اضافها بالقوة إلى ممتلكاته (١٥٥٨) .

ان التحالف الوثيق بين هنرى الثاني ملك فرنسا والسلطان التركى قد أعطى للكفار (يعنى المسلمين) السيادة غير المنازعة في البحر الأبيض المتوسط ، وسمح لدرغوث بالتطواف في هذا البحر من أقصاه إلى أقصاه دون أن يخشى عقاباً ، فكان ينزل بشواطئه يحرق ويدمر الأراضى ، ودامت هذه الأعمال حتى رجعت إلى الشرق أغلب قطع الأسطول التركى ، لقد كان الفزع الذى يثيره الأسطول الطرابلسى شديداً حتى أن أقدر البحارة المسيحيين في ذلك الوقت لا يخاطرون بالخروج في البحر حتى بقوات كبيرة إلا بعد التأكد أن درغوت بعيد عنهم ولا تحتمل ملاقاته .

ومن حسن حظ المسيحية أن دب الخلاف بين الفرنسيين والأتراك وفشلت المخططات الكبيرة التى دبرها هنرى الثاني بسبب ارتشاء هؤلاء الأتراك واستغلال اندريا دوريا

هذه النزعة فيهم خير استغلال ، أضف إلى ذلك اشمئزاز الفرنسيين من القتال تحت قيادة قرصان . ويبدو أن الامبراطور شارل الخامس قبل نهاية ملكه حاول رشوة دوغوت ليحوله إلى جانبه فعرض عليه مملكة في أفريقية أكثر اتساعاً من طرابلس ، كما فعل مع بربروسا في سنة (Prevesa) بريفيسا المشؤومة .

أما بالنسبة للخلاف بين درغوث والفرنسيين فقد تم بحثه بتوسع في مقال بعنوان « التحالف الكافر» نشر في المجلة البحرية لسنة ١٨٩٦ ، لقد استطاع الملك هنرى الثاني في حرب كورسيكا كما هى الحال في حرب سيانا أن ينتزع قيادة الأسطول من دورغوت وأن يولى أمير بحر آخر هو بيالة باشا ، وقد تبين أن هذا هو الآخر لا يقل عن درغوت جشعاً وهيمنة وارتشاء ، واستطاع درغوت وهو حرّ من كل مسؤولية تجاه الباب العالى ومن أية رقابة فرنسية أن يوسع غاراته ويحاول ضرب وهران وغيرها من الممتكات الأسبانية في أفريقيا .

15

بعد ابرام معاهدة كاتوكامبرسيس وابعاد فرانسا عن التحالف مع الأتراك اقتنع فيليب الثاني بعد أن ضمن لنفسه السيادة على ايطاليا ، بضرورة ضرب القوة البحرية لسيد طرابلس وتسخير قواته وقوات حلفائه لاعادة احتلال تلك القاعدة البحرية العظيمة . وربما دبر هذا المخطط العسكرى المعلم الأعظم في مالطة كما ذكر مؤرخو المنظمة ، لكن الصحيح أن التعليمات صدرت من مدريد وأن منظمة مالطة قامت بدور ثانوى صغير . تألفت الحملة في الغالب من قوات ايطالية كما يتبين من الجدول التالى المستقى من تقارير رسمية .

١٦ شينيا — لجان أندريا دوريا وهو حفيد ووريث أندريا في تلزيم الشواني وفي قيادة الأسطول بالرغم من صغر سنه .

٥ شواني — من مملكة نابولى وأثنان ملك خاص لاحد الرجال من نابولى .
٨ شواني — من مملكة صقلية وأثنان ملك خاص لاحد الصقليين .
٤ شواني — من الدوق كوسيو من عائلة سيديتشى .
٣ شواني — من البابا بيوس الرابع .
١١ شينيا — من الأملاك الخاصة لجنويين كانوا في خدمة أسبانيا .
٥ شواني — من منظمة مالطة .

بلغ عدد القوات البرية التى أبحرت ١٢ ألف جندى نصفهم تقريباً إيطاليون من نابولى وصقلية ولمبارديا وطوسكانة ، أما الآخرون فمن الأسبان والألمان .

وأسندت قيادة القوات البرية إلى دوق مدينة تشيلى نائب ملك صقلية أما القيادة البحرية فكانت من اختصاص جان أندريا دوريا . وظل هدف هذه الحملة طرابلس ، وفي روما وزعت النشرات التى تمثل احتلال المدينة بواسطة الأسطول المميز بالاعلام وممثلين من سرايا الانزال ، وقد خيل إليهم أن النصر محتم لاجدال فيه .

ولكن الآمال التى ملأت الأنفس قد باءت بالفشل ، إذ أن درغوت ، وقد ألقى القبض على سفينة مالطية قد علم منها بالاعداد للحرب فأعلم استانبول بالأمر وطلب منها النجدة . ووصلت تلك النجدة في الوقت المناسب إذ أن الأمراض والخلافات والرياح المعاكسة فرضت على الحملة المسيحية التوقف أكثر من المتوقع في مسينا وفي مالطة وبعد ذلك في القناة بين جزيرة جربة والأرض الثابتة عندما توقف الأسطول للتزود بالماء وحدث أن جرى هناك أول صدام مع العرب (جرت المعركة بقلعة الجزيرة والمسماة القليعة) وكانت النتيجة سيئة جداً بالنسبة للمسحيين .

نزل أفراد الحملة بقضهم وقضيضهم في الجزيرة بدلا من متابعة السفر إلى طرابلس لأسباب عديدة وجرت مناوشات دامية واستطاعت الحملة احتلال القلعة وقام رجالها فوراً بالعمل على زيادة التحصينات ، لكن عندما وصل الخبر أن الأسطول التركى بقيادة بيالة باشا قد أقلع من ميناء نوارينو متجهاً إلى طرابلس ظهر في صفوف المسيحيين الشغب والهرج والمرج .

وبالرغم من أن الفرق بين القوات البحرية المسيحية والتركية لم يكن كبيراً إلا أن الشهرة غير المستحقة في أن التركى لا يقهر والتى جاءت ، كما سبق أن رأينا ، بسبب مناورة بريفسيا المشؤومة فلم يفكر أى واحد في المقابلة والمبارزة ، وقرر الجميع دون تردد ترك الحملة والعودة إلى صقلية ، وأراد نائب الملك تأجيل الاقلاع حتى يتم صعود كل المشاة إلى السفن ، أما جان اندريا دوريا الشاب فقد نصح بالسفر فوراً وترك الجنود بالجزيرة

وفي هذا الوقت ظهر الأسطول التركى فحدث على الاثر هروب رهيب يبعث على الاشمئزاز إلى السفن المسيحية وقطعت الحبال وترك الجنود بالبر والقى بالخيل في البحر ، ورمت بعض السفن بمدافعها في المياه لتكون أقل حملا وأسرعت في تلمس طريق النجاة ووقع أغلبهم في يد العدو دون قتال أو حتى اطلاق رصاصة واحدة وألقى آخرون بأنفسهم على الشاطىء .

المنظر منظر الرعب الجنوني وحسبما قاله بيتر وماكيافلي ابن ذلك المؤرخ الكبير ومفوض دولة طوسكانة في تلك الحملة في تقريره : لا لقد ملأ الخوف كل النفوس واقترفت جرائم أنانية وحشية ، ولم يصدر أى أمر ولم يفكر أحد في اتباعه وتحطم كل انضباط .

استولى العدو على ١٩ شينيا وكثيراً من المراكب الشراعية أما غيرها التى نجت فقد انطلقت توزع الرعب في كل موانيء ايطاليا .

كانت تلك الهزيمة فادحة : اضطرت حامية الجزيرة التى تركت لشأنها الاستسلام بعد مقاومة عنيفة ومعركة يائسة ، وبقى درغوت سيداً على الجزيرة يجوب البحر المتوسط لاتطول إليه يد يوزع الرعب في كل مكان . أما السواحل الايطالية فأنبرت في سرعة تبنى الأبراج للدفاع ضد الغارات ولا يزال بعضها باق إلى اليوم يشهد بالخوف الذى زرعه سيد طرابلس . (١)

ولكن كان لتلك الهزيمة أثر ايجابي إذ أعطى فيليب الثاني وبعض أمراء ايطاليا دفعاً قوياً لاعادة بناء الأسطول من أجل الدفاع ضد الطرابلسيين .

ونوقش مخطط لاعادة الاستيلاء على طرابلس ، أو ربما نوقش التقرير الذى وضعه أحد الأساقفة الذى وقع أسيراً عند درغوت ثم جرى افتداؤه سنة ١٥٦١ والذى ذكر فيه أوضاع المدينة وحالة التحصينات التى وضعها درغوت وأكملها ، وقوة الحامية وعدد المدافع ، وأفاد بأنه يمكن الاستيلاء على تلك المدينة بـ ٦٠ شينيا و١٠ مراكب و١٠ آلاف جندى . وهذه الوثيقة الموجودة بمكتبة الفاتيكان والتى نشرها فراكتوى تشير إلى تفصيلات دقيقة هامة جداً لمعرفة أحوال طرابلس ، ولم يتبين أن الاقتراح قد وجد قبولا فالنكبة لا تزال قريبة العهد وأعمال بناء الأسطول لم تتقدم كثيراً .

وبقى درغوت لبعض الوقت السيد الفعلى للبحر المتوسط الغربي فإن السفن الحربية والتجارية كثيراً جداً ، وعند الهجوم على المرسى الكبير قرب وهران تحمل خسائر فادحة ومع ذلك فان ثروته ظلت واسعة .

اقترح المعلم الأعظم لمنظمة مالطة لافاليت انشاء أسطول جماعى للاستيلاء على طرابلس مرة أخرى منتهزاً فرصة غياب درغوت عنها غياباً وقتياً ، ولكن زوبعة هبت فشتتت القوات القليلة التى جمعت وبذلك تم التنازل عن الحملة ، فكان ذلك فحافزاً لحمل السلطان على ارسال قوة بحرية لاحتلال مالطة واشترك هو نفسه بثلاثين قطعة بين

---

(١) يقول الاب برنيا فى كتابه طرابلس من سنة ١٥١٠ الى ١٨٥٠ ، أن جان اندريا دوريا واجه العدو بحرا وفى هذه العبارة تلطيف لواقع محزن ، وماكيا فيلى يقول باختصار أن نتيجة هذه الحملة هى هزيمة بحرية لا مثيل لها ، لم يرق فيا قطرة دم واحدة وعمت فوضى فى الحملة لم ير آكبر منها فى أية حملة أخرى . (المؤلف)

شيني وغليون طرابلس في عمليات الحصار الذى اداره هو بنفسه ، وقد تميز رجاله بالبطولة والشهامة في الهجمات المتكررة على قلعة سانت تلمو ، وقادهم هو نفسه أكثر من مرة في الانقضاض والهجوم فأبلوا البلاء الحسن ولكنه شوهد في يوم ١٨ يونية ١٥٦٥ وهو يسقط ميتاً بشظية صخرية .

16

لقد تألم الأتراك كثيراً لوفاة درغوت ولم يجد المسيحيون في وفاته فائدة فقد دعى لمنصب الولاية من بعده ولقيادة الأسطول القرصني قلج علي، ويرجع بأصله إلى كالابريا (جنوب ايطاليا وهو أيضاً مرتد عن المسيحية . كان قلج عليّ تابعاً لدرغوت وصار ذائع الصيت لشجاعته وجبروته وقسوة غاراته .

ومرت مع قلج علي فترة من النشاط في البحرية الطرابلسية ورقي بعد قليل في الدرجة والسلطة وأسندت إليه ولاية الجزائر وحمل إلى طرابلس كما حمل من بعد إلى الجزائر فائضاً من الغنائم وملأ سجون طرابلس كما ملأ سجون الجزائر من بعد بالأسرى وأخرج من مراكز عمله في البلدين أبطالا من البحارة جددوا الرعب في شواطئنا مثلما كان سائداً في العهد العربي .

واستمرت التحية التى تقال للمسافر بحراً « نجاك الله من الشواني الطرابلسية » وبقيت التحية حتى عندما أكتسب شهرة في تونس وبنزرت والجزائر مرتدون أخرون مثل تشيكالا والأسطى مراد والرائس مامى .

أعادت معركة ليبانتو التوازن إلى البحر المتوسط ، وقد اندلعت بعد احدى عشرة سنة من الهزيمة بجربة بفضل دخول البندقية إلى المعركة هذه المرة وبعد خمس وثلاثين سنة من الحياد ، وأعادت هذه المعركة الجرأة والصلابة للبحارة المسيحيين ولكنها لم تستطع أن تضع حداً لقرصنة بلدان شمال أفريقيا بسبب الخلاف الذى دب بين المنتصرين ، وساهم الطرابلسيون في تلك المعركة وخسروا مئات من الموتي وكان جعفر آغا يقود القوات الطرابلسية ، كما اشترك الطرابلسيون بالسفن في الحملة لطرد الأسبان من تونس سنة ١٥٧٤ واتجه الباشا براً على رأس جيش صغير لمساعدة الأتراك الذين يقودهم سنان باشا .

ومع قليل من الاستثناءات فان حملات القرصنة للامارات الافريقية متداخلة وليس من السهل التمييز بين ما قام به الجزائريون من ذلك الذى تم على أيدى التونسيين والطرابلسيين

وفي القرنين السادس عشر والسابع عشر مثلما كان في العصر الوسيط فان المؤرخين كانوا يطلقون الاسهم العام : الكفار أو الأفارقة أو المغاربة للاشارة إلى مهاجمى سواحلنا وناهبي سفننا وقليلا ما يحدث التمييز وخاصة بين التونسيين والطرابلسيين ، لقد وهنت القوة البحرية لهذه البلاد وبالتالى ضعفت القرصنة بسبب الخلافات المدنية والحروب مع سكان الدواخل وجزيرة جربة تلك الحروب التى فرقت طرابلس بعد استدعاء جعفر آغا سنة ١٥٨١ وفي السنوات العشرين الأخيرة من القرن السادس عشر (١) .

نعم لقد وهنت القرصنة ولكنها لم تنطفىء ، وبقاء ذكريات كثيرة لأسرى مسيحيين في طرابلس هو ولا شك ثمرة استيلاء وغارات ، وعلينا أن نفرض أنه من طرابلس ومن برقة بعد ضمت أخيراً ما زالت تخرج حملات قرصنة إذا ما وجدنا أن سرية صغيرة من فرسان القديس اصطفان قد توجهت إليها وبالتدقيق توجهت إلى طلميثة وكان يقودها أمير البحر مونتاوتو . وقد نزل إلى البر للقبض على أسرى وربما جاء للانتقام (١٥٩٥) .

وبخصوص هذه الحملات الدورية التى يقوم بها فرسان مالطة أو فرسان القديس اصطفان (وهذا تنظيم فرسان بحرى أنشأه كوزيمو الأول دوق طوسكانة) أو شواني أمير طوسكانة من المفيد أن نقول بوضوح أن هذه الحملات إذا أفادت من جهة في الحد من تسلط المغاربة فأنها من جهة أخرى بالانقضاض المفاجىء على المدن والضواحى البحرية وايقاد الحرائق والتدمير والنهب والعنف والاستيلاء على السكان من الجنسين كل ذلك قد أوقد نار الانتقام الوحشى وحرك أسباب الثأر وكان دافعاً مباشراً في الحروب المتجددة بين الأتراك والبندقية .

---

(١) يقول الكاتب أن جعفر آغا كان واليا وقائدا على طرابلس وأنه سار برا الى تونس – لنجدة سنان ، ويقول صاحب " البرق اليمانى فى الفتح العثمانى " تأليف محمد بن احمد النهر والى المكسى طبعة ١٩٦٧ صحيفة ٤٥٨ وما بعدها – أن القائد كان دلو مصطفى باشا وقد صا د ف فى طريقه السلطان احمد بن حسن الحفصى فى زهاء اربعة آلا ف مقاتل ، فأغار عليهم الباشا وقتل السلطان الحفصى .
اما قلج على فكان فى هذا الوقت وفى هذه المعركة هو القبودان – قائد الاسطول . (المعرب)

17

هناك وثيقة غريبة وجدت قبل وقت في الجزائر ونشرت في سنة ١٩٢٥ على صفحات مجلة المجلة الافريقية (Revue Africaine) وتحدثنا هذه الوثيقة أن انظمتنا الفرسانية البحرية كانت تجرى من وقت لآخر استكشافات للسواحل الافريقية للتعرف على الأماكن التى لا تستوفي وسائل الدفاع والمفتوحة إلى مراكبنا وحيث يحتمل وجود قليل من الرقابة وذلك من أجل توجيه الحملات إليها لا للاحتلال بل للنهب والسلب .

الواضح أن هذه المغامرات التى تقوم بها قوات ضعيفة لا يمكن أن تعود بنتيجة سوى ادامة الحرب الصغيرة واستشارة المغاربة والأتراك للعمل بالمثل .

وكتب التقرير عن احدى هذه الاستكشافات أثنان من فرسان مالطة وهما من الايطاليين : لانفريدوتشي ويوسيو ويتعلق بالساحل من دمياط (مصر) إلى شرشال (الجزائر) وذكر بالاضافة إلى مصر وتونس والجزائر كل السواحل البرقاوية والطرابلسية وأشار التقرير إلى الأماكن التى يمكن أن تزود فيها المراكب بالماء والجهات التى يحتمل وجود بعض الفرسان العرب فيها ، ويقول أن بعضهم مستعد لمساعدة المسيحيين بسبب العداوة مع الأتراك ، ومن الصعب التعرف على كل الأماكن إذ أن الفرسان يشوهون الاسماء فيقولون مثلا سالون — سلّوم ، وبوكيرى— أبو قير ، وترا بوكو— طبرق أو يذكرون قرى أو تجمعات سكنية اختفت اليوم ، وعلى أية حال فمن مجموع تلك المعلومات يمكن استنتاج معلومات ثمينة عن أحوال دواخل البلاد ودفاعاتها ومواردها .

وبالنسبة لطرابلس فقد أشير إلى مصراتة ، وبورتو ماقرو (الخمس) وتيسورا (تاجوراء) وزيليت (زليطن) كأماكن صالحة للنزول أما جنزور والزاوية وزوارة فأماكن غير مأمونة وفضل المؤلفان ميناء سوسة ببرقة وميناء الدقيق في تونس وميناء القل بالجزائر .

ووصفت التحصينات بمدينة طرابلس وعدد قطع المدفعية وعينت الحاميات وذكر المؤلفان أنه يلزم للاستيلاء عليها مائة شبنى ومائة مركب عليها ٢٠ ألف رجل للانزال بالمدينة ولكن ذكر أيضاً مخططاً للمدعو المعلم داود الذى يقترح للاستيلاء عليها اعداد ٢٠ شينيا فقط و١٠ فرقاطات و١٥٠٠ رجل .

كم كان عدد الحملات التى نظمت فعلا ضد طرابلس : باستعراض مافي الذاكرة وما خطه تاريخ الحملات التى قام بها فرسان مالطة وفرسان القديس اصطفان ويتصفح الحوليات الطرابلسية وما كتبه الأب برنيا فأننا لانجد أخبار انزال مسيحى في طرابلس في حين أنه يتكرر ذكر مثل تلك الحملات على تونس والجزائر وبدون التحدث عن الحملة الكبيرة على الجزاير التى أمر بها فيليب الثالث سنة ١٦٠١ والتى جمعت لها شوان من البابا وأمير طوسكانة ومالطة وسافويا وصقلية ونابولى ومن المرتزقة الجنوبيين وباءت بالفشل وكلفت قائدها جان أندريا دوريا العزل من منصبه فأن الأمير فرديناند الأول كان يفضل الهجوم على سواحل سورية وشبه جزيرة المورة والجزائر وأن فرسان مالطة كانوا يفضلون مهاجمة السواحل التونسية وإلى غير ذلك من التفضيل . ونذكر حرق الأسطول الجزائرى الذى قام به بحارة طوسكانة سنة ١٦٠٤ مباغتة ونذكر كذلك الهجوم على بريفيا سنة ١٦٠٥ والنزول على سواحل ايطاليا في نفس هذه السنة والحملة المشؤومة التى قام بها المالطيون على المحمدية (في خليج تونس) وحملةطوسكانة لاياس سنة ١٦٠٦ وهكذا بالتوالى دون أن نعثر على ما يذكر حملة على طرابلس وخاصة في الحقب الأولى من القرن السابع عشر .

وأقرب غارة إلى طرابلس كانت تلك التى استهدفت جزيرة قرقنة سنة ١٦١١ وقد قام بها نائب الملك بصقلية وشارك دوريا وكان قد رفض فرسان منظمة القديس اصطفا المشاركة فيها .

ويمكن أن نستنتج من ذلك أن القرصنة الطرابلسية التى كانت تثير الرعب في أيام درغوت وقلج علىّ قد انتهت إلا أن هذا الافتراض تكذبه ما لدينا من معلومات دقيقة حول استمرار القرصنة دون توقف وعندما صارت سلطة الباشوات الأتراك في طرابلس سلطة اسمية أو دون ذلك وتحول الحق في ممارسة السلطة إلى الديوان أو مجلس الضباط

واحتفظ هذا المجلس بصلاحية تنظيم القرصنة ، ومعلوم أن هنرى الرابع ملك فرنسا وكان دائماً صديقاً للأتراك كما كان سلفه ، حصل لرعاياه على الحصانة في الايالات الثلاث وأطلق سراح الفرنسيين الذين كانوا أسرى ولم يكن عددهم قليلا .

ويجب أن لا يهمل الخبر الذى يفيد أنه خلال عهد سليم الذى تقلد الباشوية من سنة ١٦٠٦ إلى سنة ١٦١١ كان ميناء طرابلس يعج بالمراكب التجارية من طوسكانة وجنوة والبندقية ومالطا خلافاً للموانيء الافريقية الأخرى وهذا يجعلنا نقدر أن طرابلس عقدت مع بعض الدول الايطالية على أقل تقدير وبواسطة اتفاقات خاصة وجوازات مرور علاقات صداقة وأوقفت من أجل ذلك حرب القرصنة

وإذا ما وجدت هذه الاتفاقات كانت لأجل قصير ، إذ أن الحرب مع قبائل الدواخل التى ظلت مستمرة تقريباً أوقفت التبادل التجارى مع فزان والمنطقة الاستوائية وحرمت بذلك المراكب المسيحية من التزود بانتظام بالسلع الثمينة مثل العاج وريش النعام والتبر ومن جهة أخرى فإن السكان الذين يعيشون على البحر وقد تعودوا على حياة النهب كانوا يضغطون لاستئناف القرصنة التى صارت المصدر الوحيد للربح . ولا يستبعد أن الهجرة التى فرضت على الموريسكيين (١) الذين انتشروا في شمال أفريقيا قد ساهمت في دفع القرصنة من جديد إلى الأمام .

لقد جرى هذا بالضبط عندما تقلد سليمان المسمى صفر لقب داى (باى) ونعرف عن هذا الأخير أنه بنى حماماً (٢) كبيراً للأسرى المسيحيين .

---

(١) مسلموا أسبانيا .— (المعرب)

(٢) — الحمام هنا يعنى السجن الذى يكدس فيه الا سرى ز وسمى بالحمام لا نه خال من نوافذ ولا يدخل اليه الهواء ولا النور مثل الحمامات التركية ، والمعروف من هذه الحمامات هو الموجود حتى اليوم تحت ميدان الكنيسة القديمـة قرب باب البحر . (المعرب)

18

وفي هذا العهد أى في العقدين الأولين من القرن السابع عشر ظهرت شخصية سيئة السمعة تتمثل في ماسى رائس وهو أيضاً مرتد عن المسيحية ، وقد أعاد الرعب من جديد إلى البحر الأبيض المتوسط ، وكانت سلسلة من المعارك مع سفن طوسكانة والسفن البابوية ومنظمة فرسان مالطة ، وهو الذى أدخل استعمال السفن المستديرة على بحرية القرصنة الطرابلسية عوضاً عن الغليونات .

وخلال حكم مصطفى شريف (شريف داى) الذى ابتدأ عهده على الراجح في سنة ١٦٢٠ ، نظمت الدول الايطالية باشراف فيليرتودى سافويا حملة جماعية لتطهير البحار من القراصنة وانضمت إلى هذه الحملة شوان بابوية وأخرى لأمير نابولى وصقلية وجنوة ومالطة وقسمت إلى ثلاثة أسراب جابت بحر ترينو والسواحل الافريقية طولا وعرضاً وليس هناك مايدل على أنها حققت نتائج هامة (١٦٢٣) .

وفي السنة التالية التقى فرسان من منظمة القديس اصطفان تابعين لبحرية البابا بمراكب قرصنة وجرى قتال كانت فيه الحظ مع المسيحيين ، وتبين بعد ذلك أن المراكب ليست لمامى رائس بل لحسن آغا وهو قرصان جزائرى رهيب ، وقد استطاع بحيلة شيطانية أن ينجو من القبض عليه بحرق سفينته .

في سنة ٦٣١ اعتلى سدة الحكم في طرابلس محمد الساقزلى وهو أيضاً مرتد عن المسيحية واشتهر قبل ذلك كقرصان لدى الجزائريين وقد خرج عدة مرات منتصراً وتم له الاستيلاء على سفن وبحارة ايطاليين ، ويمكن أن نفهم من ذلك أنه أعطى دفعاً قوياً لحركة القرصنة مزوداً سلطان القسطنطينية بعدد وافر من الأرقاء والإماء .

وتقابلت سفن محمد الساقزلى في كثير من المرات مع سفننا وقبضت مراكبه على سفينة لدوق سوفايا ونهبت جزيرة كورسيكا وغنمت سفناً من طوسكانة ونابولى وصقلية ،

واستولى أمير البحر لفرسان القديس اصطفان ورازانمو على سفينة لطرابلس سنة ١٦٣٤ في مياه كورسيكا ، وفي هذه السنة نفسها استطاع أسطول صغير تابع لفرسان مالطة أن يقبض على ثلاثة مراكب مشحونة بالأسرى ، ولما كان محمد الساقزلى هو نفسه حديث العهد بالاسلام فقد أحاط نفسه بمرتدين على المسيحية وأسند إليهم قيادة سفنه القرصنية العديدة ، وتميز من بينهم هولندى هو مراد الفلمنكى ، ومن المعلوم أن هؤلاء المغيرين المغامرين لم يكتفوا بتدمير الأراضى الايطالية بل انطلقوا حتى سواحل بروفانس ، الأمر الذى أثار فرنسا فتحركت تجوب البحار حتى ألقت القبض على مراد ، وبالنسبة لفرنسا ومنذ عهد مصطفى شريف فان الكاردينال زريشيليو ، اتباعاً للسياسة الفرنسية التقليدية التى تميزت بصداقتها لتركيا ، استطاع بواسطة سلطان القسطنطينية أن يربط علاقات صداقة متينة مع طرابلس وأن يطلق سراح جميع الأسرى الفرنسيين وأن يؤسس قنصلية فرنسية مثل القنصلية بتونس التى كان لها أهمية سياسية كبيرة سنة (١٦٣٨) .

وبعد الاستيلاء المؤقت على بنغازى وبناء قلعة في تلك الجهة فقد ازدادت القواعد القرصنية والطرابلسية التى لم تجد من يصدها ولم يتردد القراصنة الطرابلسيون من مهاجمة حتى القوافل الهولندية والانجليزية التى بدأت منذ وقت تجوب البحر الأبيض المتوسط وهم أشد اثارة للرعب من الجزائريين والبنزرتيين .

وعندما اندلعت حرب كريت حوّل محمد الساقزلى في السنوات الأولى سفنه الحربية نجدة للأتراك كما يمليه عليه واجب التبعية ، وفي الوقت نفسه كانت المراكب السطرابلسية تجوب بحر ترينو مهددة مواصلات البندقية مع كريت .

وفي سنة ١٦٥٢ قبضت السفن البابوية على فست لطرابلس بعد موت محمد مسموماً بثلاث سنوات ، وجاء بعده مرتد آخر وقرصان مهاب ذلك هو عثمان من أصل يوناني كسابقه (١) وقد ساهم كذلك في حرب كريت بسفنه وجرت له مصادمات عديدة مع البنادقة وحلفائهم (معركة الدردنيل سنة ١٦٥٧) بالاضافة إلى فرسان القديس اصطفان الذين رأوا أن أسطولهم الصغير قد نقص عدداً بسبب بيع الشواني إلى الكردينال ما زاران .

---

(١) الساقزلى – نسبة الى ساقز وهى احدى جزر ارخبيل اليونان وعثمان هذا هو صاحب مدرسة عثمان باشا الواقعة قرب جامع درغوت باشا . (المعرب)

وهذا النقصان وضعف الأسطول البابوى والحرب الدائرة بين أسبانيا وفرنسا في البحر وحتى في ايطاليا وإلى معاهدة السلام التى عقدت في البيرنيه، هذه الأمور مجتمعة تركت القرصنة الطرابلسية دون أى من كابح .

على أن نقصان القوات الايطالية أدى إلى تدخل القوات الأجنبية ولكنها اقتصرت في أنانية على حماية رعاياها . ومن المناسب أن نذكر هنا وبسرعة أن أول دولة استطاعت أن تفرض كابحاً على الطرابلسيون كانت انجلترا . فبعد أن أحرق أمير البحر بليك ميناء الدقيق في تونس وأحرق كذلك بعض المراكب التونسية تقدم إلى طرابلس سنة ١٦٥٤ مهدداً ونجح في الحصول على الموافقة بسحب الأسطول القرصنى إلى الحوض الجاف وبعد أربع سنوات عاد الانجليز أكثر تهديداً ويبدو أن القنصلية الانجليزية في طرابلس فتحت نتيجة لهذا التهديد :

وفيما بعد سنة (١٦٦٠) جاء أميرال فرنسى وبعده الأميرال الهولندى روبتر ولكن عملهما اقتصر على أفتداء الاسرى من جنسيتهما وفي ١٦٦٢ عقد اتفاق مع الانجليز ، وفي سنة ١٩٦٥ وفي أخطر أوقات حرب كريت استولى الطرابلسيون بأسطول يتكون بأسطول يتكون من أربع قطعات على سفينة بندقية محملة بالجنود عند الطرف الجنوبي لشبه جزيرة المورة بعد قتال بطولى مات فيه القائد البندقي موشينيقو . وتقول المصادر العربية أن عدد الأسرى كان كبيراً جداً حتى صار من الضرورى بناء حمام جديد وكانت البندقية في هذا الوقت منهمكة في حرب كريت فلم تقدر على الثأر لهذه الهزيمة بل اكتفت بافتداء الأسرى فيما بعد .

ان جبروت وكبرياء عثمان كان فوق الوصف ، حتى أنه رفض تسليم الأسرى الفرنسيين إلى أميرال أوفده إليه لويس الرابع عشر (١٦٧١) بل للرد على التهديد أرسل المرتد الفرنسى بيرم لضرب سواحل كالابريا واقتناص الغنائم ، وعاد بعدد وافر عنهم .

لقد كانت طرابلس إذن تعج بالأسرى ، وسقطت حكومة عثمان على اثر انتفاضة لبعض البحارة ممن كان يتململ بسبب قلة الأجور وكان على رأسها مرتدون كذلك ، وجاءت الانتفاضة بمرتد آخر هو الآخر من البحارة لكن سلطته دامت ساعات قليلة . وفي هذه الفوضى الضاربة استطاع عدد كبير من الأسرى الافلات ذكر منهم أسماء

من فرسان مالطة ، وقد ساعدهم على الهرب مرتد آخر يسمى رجب وأسمه الحقيقى هو ج. ب فرارى وهو من بيد مونت وكان رجب هذا يتمتع بتقدير كبير لشجاعته واقدامه .

إلا أن اذهار القرصنة الطرابلسية قد أصيب بضربة خطيرة سنة ١٦٧٥ عندما جاء الأميرال نربورو وسد الميناء على أثر القبض على ثلاث سفن انجليزية ، وقصف نربورو القلاع وأحرق بعض غلايين القرصنة وآلزم إبراهيم داى على أثر حملة ليلية من بعض سفنه على تحرير جميع الأسرى الانجليز وكثير من الفرنسيين وكان بينهم طبيب هو المصدر الرئيسى للمعلومات عن هذه الفترة الهامة من التاريخ (١٦٧٦) .

وبدأ كأن القرصنة قد انطفأت لكن (الريّاس) أو مقدمى السفن اللذين حرمهم تدمير السفن من مكاسبهم المعتادة دب بينهم الهرج والمرج واشتد الغليان حتّى أضطر مصطفى داى وهو ما يزال جديداً في منصبه إلى بناء سفن جديدة لاستئناف القرصنة التى سبق له أن احترفها .

استؤنفت الغارات على سواحل ايطاليا وقبض على سفن أخرى وتدفق جديد من الأسرى ، وتميز في هذه المعارك البحرية أحد المرتدين هو حسن كابود ان وأصله من كالابريا وكانت اماؤه من المسيحيات الجميلات اللاتي قبض عليهن هو نفسه قد ذكرها المؤرخون المحليون بأعجاب وحسد . اسم حسين كان يبعث الرعب في الحوض الغربي من المتوسط ، والأساطيل الايطالية تجر على الخروج من موانيها ، فما كان من لويس الرابع عشر إلا أن يأمر الأميرال دى كيسنى بأن يفرض نزع السلاح على الطرابلسيين وأن يعمل على تحرير عدد كبير من الأرقاء الفرنسيين (هذا القائد هو نفسه الذى ارتبط اسمه بقصف جائر لمدينة جنوة) .

لقد أشرب دى كسينى كثيراً من الخدع ومع ذلك لم يتوان عن تتبع القراصنة وبالرغم من الحماية التركية لهم فقد أحرق في ميناء ساقز بعض من سفنهم التى كان يقودها المرتد محمد . على أن فرنسا لم تسترجع من حكومة طرابلس جميع الأسرى إلا عندما جاء الأميرال ديسترى وقصف بالبطاريات العائمة المدينة والقلاع (١٦٧٥) .

ولأول مرة في تاريخ القرصنة تهتم فرنسا بالأسرى المسيحيين من غير الفرنسيين إذ حرر أكثر من ١٢٠٠ شخص أغلبهم من الايطاليين .

وحسب ما جاء في تقرير لترجمان فرنسي فإن الأسطول الطرابلسى كان يتألف في ذلك الوقت(بعد نكبة ساقز) من عشر سفن على كل واحدة منها ما بين ٤٤ إلى ٢٦ مدفعاً وطاقم يعد بين ٤٥٠و٢٦٠ رجلا ويضاف إلى هذا العدد ثلاث غليونات .

كان من المستحيل على الداى والديوان ابقاء كل هؤلاء الأشخاص عاطلين ومنعهم من الخروج للقنص ، وللذا وإذا ما احترمت السفن الفرنسية فقد ابتدأت أعمال القنص ضد رعايا دول أخرى حتى أن القرصان قد صعد إلى منصب رئيس الحكومة وكان عليه أن يحمى رفاقه القدماء .

واهتاج البحارة وقتل حسين ولم تتوقف القرصنة ، انها مسألة حياة أو موت ، وبالضرورة فإن الحكومة لاتجد سبيلا غير السماح بها وتشجيعها إذ تعود عليها بعشر الغنيمة وبمال افتداء الاسرى .

وبينما كانت الحكومات الايطالية تقدم الاحتجاجات وتبحث عبثاً عن مساعدة أرسلت فرنسا مرة أخرى إلى طرابلس لحماية رعاياها وقنصلها المسجون أسطولا قوياً قصف المدينة والقلاع دون ما فائدة سنة (١٦٩٢) ، وبعد ذلك ، استطاعت بواسطة مفاوض بارع أن تسترد بعض الغنائم التى أخذت منذ وقت قريب وأن تسترد بعض الأسرى ..

ومن المفيد أن نذكر أن فرنسا حصلت في تلك المناسبة على رخصة الاستحواذ على أعمدة رخامية وتيجانها وبعض المرمر والتماثيل من مدينة لبدة الأثرية والاذن بنقلها إلى الخارج .

لم تتوقف القرصنة وربما توقفت لبعض الوقت ما اشتد الخلاف بين الجزائرين والطرابلسيين من جهة والتونسيين من جهة أخرى وساد بين قطاع الطرق البحرية هؤلاء تمزق واضح ، وتوقفت مرة ثانية في وقت آخر عندما شن التونسيون والطرابلسيون الغارة على مدينة الجزائر (١٧٠٠) وعندما نصب على رأس الاسطول إبراهيم خوجة

(كان أسيراً يعمل على احدى شواني صقلية) فقد تولى هذا قيادة سفنه بنفسه ضد السواحل الصقلية وهو ممتلىء بغضاً لسادته السابقين .

على أن الانتفاضات المتكررة التى جاءت بالعديد من الدايات إلى السلطة في بداية القرن الثامن عشر ، وفي فترات متقاربة جداً ، لم يكن لها على ما يبدو أثر على حرب القرصنة خاصة وأن حالة الحرب المستمرة في المتوسط (حرب وراثة العرش في أسبانيا) جعلت السواحل الايطالية تتمتع برقابة أفضل وقل القبض على السفن ، ويقول شهود معاصرون ان البؤس بين القراصنة الطرابلسيين بلغ أشده .

والبندقية هى الدولة الايطالية الوحيدة التى حافظت دائماً على علاقات طيبة مع طرابلس وظلت بحريتها التجارية مستثناة من قنص البحارة (فيما عدا حالات قليلة وبسبب ظروف سياسية خاصة) . ويتفق جميع المسافرين وقناصل فرنسا في التأكيد بأن أغلب البضائع الواردة من فزان تنقل إلى أوروبا بواسطة سفن البندقية وبالمثل ترد من البندقية السلع التى تحملها القوافل إلى فزان .

ويقوم البنادقة بنوع آخر من التجارة ، تجارة الملح ، وتأتي سفن البندقية وتشحن الملح من زوارة على مراكب شراعية كبيرة وهناك ما يشير إلى سفن من جنوة ولكن هذه تفضل السواحل التونسية ، وفي جزرها الساحلية ، كما هو معلوم توجد مؤسسات ومصادر ومصائد أعطيت لشركات من جنوة بعقود تأجير دائمة .

19

في سنة ١٧١١ حدث الانقلاب الكبير الذى جاء بالعائلة القرة مانلية إلى السلطة ويطرد الأتراك وأخذت حرب القرصنة دفعاً جديداً بعد الاستقلال النسبي عن القسطنطينية ، ويفضل الجعل المستلم من هولندا وجنوة للحصول على تجديد لاتفاقات التجارة ومنح اجازات المرور استطاع أحمد أول القرمانليين ان يعيد بناء الأسطول (١) بعد أن أصيب بالدمار وأهداه السلطان سفينتين إحداهما ملكللبندقية . وبعد ذلك بقليل بدأت تظهر أخبار القبض على سفن أخرى وأسرى آخرين ، ويبدو أن أحد الجنويين وأسمه ترافيرسو كان له نصيب في اقتسام الغنائم ، وترافيرسو هذا هو وكيل شركة ملاحات تاجوراء وقد منحه أحمد الامتياز قبل ذلك بقليل .

ومرة أخرى تتدخل فرنسا لحماية مواطنيها المقبوض عليهم والمعذبين وحضرت أساطيلها أمام طرابلس مهددة مرات ومرات ، وفي سنة ١٧٢٨ ألقى قائد السرية البحرية قرانيرى أكثر من ١٨٠٠ قنبلة على المدينة بعد أن فشلت جميع محاولات التوفيق لكنه لم ينجح في تجديد الاتفاقات ولم تتم الموافقة على التجديد إلا في السنة التالية .

وفي سنة ١٧٢٦ ، بعد أن أضحت النمسا سيدة على نابولى وصقلية عقدت اتفاقاً لا مع طرابلس بل مع سلطان القسطنطينية ، وبموجبه يتمتع جميع رعايا الامراطور ورعايا دولة بلجيكا والدول الايطالية بما في ذلك طوسكانة بحصانة سفنهم وبضائعهم ورجالهم ويمنع القبض عليهم من قبل قرصان أيالات الشمال الافريقى ، وقبل القره مانلى هذا الاتفاق ومنذ هذا الوقت بات ممكناً لجزء كبير من ايطاليا أن تتمتع بالسلام مع الطرابلسيين وأسست على أثر ذلك قنصلية نمساوية في طرابلس وهى في واقع الأمر قنصلية بصقلية

---

(١) — فى هذا الكتاب تتردد كلمة اسطول وتعنى الطائفة من السفن وهى كلمة اعجمية و كلمة عمارة بفتح العين وتعنى طائفة من السفن الحربية تكون معا ، والكلمة مولدة — انظر المنجد (المعرب)

ونابولى . وبعد سنوات قليلة ، وبسبب الاستيلاء على سفينة طرابلسية على سواحل كالابريا قطعت العلاقات الطيبة وتفجرت حرب قرصنة بين حكومتى نابولى والقرة مانلى ودارت الدائرة على نابولى (في هذا الوقت انتقل الحكم إلى عائلة البوربون بعد حرب الخلافة على الحكم في بولندة) .

وتولى محمد بعد أبيه أحمد لفترة قصيرة (١٧٤٥ - ١٧٥٣) ووجد نفسه مضطراً إلى استئناف حرب القرصنة (هكذا تقول التقارير القنصلية) بسبب الأوضاع المالية البائسة ، لقد سبق أن منع هذه الحروب منعاً قاطعاً لكنه قد أجبر في احدى جلسات الديوان على استئناف الحرب في البحار ضد المسيحيين وأوقعت السفن الطرابلسية خسائر شديدة بسفن صقلية ونابولى (بدأ ت طرابلس تستعمل سفناً من نوع الشباك الخفيفة) ، أما أما قنصل نابولى الذى يعمل بطرابلس تنفيذاً لحكم اتفاق سنة ١٧٢٦ فقد التجأ لدى القنصل الفرنسى الذى تولى تسفيره سالماً إلى صقلية .

لقد منع محمد القراصنة من مضايقة السفن الانجليزية والفرنسية وكان يخشى عماراتها ، إلا أن بعض هؤلاء القراصنة لم يحترموا الأوامر ، فجاءت فرنسا كما جاءت انجلترا وقامت كل منهما باستعراض بحرى وأمكنهما استرجاع الغنائم والحصول على التعويض عن الخسائر ووعود بالنسبة للمستقبل . أما حكومة نابولى فلم تستطع أن تعمل شيئاً لنقص في السفن واضطرت إلى تحمل الاعتداء في صمت .

وطبقاً لما تقوله تقارير قناصل فرنسا فإن عمارة القرصنة الطرابلسية في هذا الوقت تتألف من الشبابك وليست من الشواني كما كانت من قبل ، وعددها عشرة ، يضاف إليها فرقاطتان بكل واحدة ٢٦ مدفعاً ، هذا إلى جانب أثنين من الشواني . وواضح أن بحرية العدو قد أذنت بالغروب الكامل ، ونتيجة للتهديد الفرنسى والانجليزى انتفض البحارة بسبب القيود المفروضة على القرصنة وأخمدت هذه الانتفاضة بالدم .

أما على القره مانلى الذى حكم من سنة ١٧٥٤ إلى ١٧٩٥ ، فقد اضطر في البداية ، لتمكين حكمه إلى الخضوع لمطالب البحارة واستئناف حرب القرصنة واطلاق يد المرتدين المستبدين ، وفي هذا الوقت حتى نابولى وقد عادت تمتلك بحرية حربية ، أخذت تفرض احترامها وباتت حرب القرصنة تنتهى في الغالب بخسائر مؤلمة .

لقد تميز في الحرب ضد الطرابلسيين البطل جوسيبى مرتينز المعروف في البحرية باسم كبتن بيى وهو الذى أعطى للطرابلسيين أكثر من درس قاس . وكما سبق أن حاول ضد طرابلس شارل بوربون فإن فرديناند أو بالاصح الأوصياء على العرش أثناء قصور الملك حاولوا اعادة الحياة إلى رابطة الدول المسيحية مثل الرابطة التى قامت في عهد فيليب الثاني ، ولكنهم وجدوا أنفسهم أمام صعوبات جمة منها ما أثارته حكومة لويس الخامس عشر .

ويجب أن نقول هنا أن فرنسا بدت كأنها تساعد ضمنياً الطرابلسيين على القرصنة (والفضل للكتاب الفرنسيين الذى لمسوا ذلك) فالقناصل الفرنسيون كانوا يمنحون رخصاً لمراكب القرصنة ، وبفضل تلك الوثائق كانت تستقبل في الموانيء الفرنسية وتحترم من قبل السفن الحربية الفرنسية وخاصة عندما يعمل القرصان ضد مراكب أعداء فرنسا .

لكن الفوائد التى تدرها القرصنة لم تعد كبيرة على ما قد تبين إذ أن قنصلا فرنسياً فرنسياً سنة ١٧٦٥ قد أكد أن البحرية أضحت في حالة ترد كامل ونقصت إلى ثلاثة شبابك وغليونين إذ استولى على الباقي فرسان مالطة والبنادقة والفرنسيون .

والواقع أن البنادقة حافظوا دائماً على علاقات طيبة مع طرابلس واهتموا باستغلال ملاحات أبي كماش ، ومع هذا فقد اشتكوا من بعض غارات القواصنة عليهم في بحو يونيو وبحر الادرياتيك واقتناص بعض سفنهم، وقدم قنصلهم احتجاجات إلى الداى دون فائدة . ومن أجل ذلك أرسلت عمارة بحرية بقيادة جاكومو ناني البطل ، تتألف من خمس قطع بين فرقاطات (وأغربة)١(وتقدمت هذه إلى ميناء طرابلس مهددة . لقد هزأ القنصل الفرنسى ، وهو المصدر الرئيسى لما كتبه فيرو ، عن المراسم التى أحاط بها ناني نفسه عندما تقدم إلى الداى وكان صاحب الحوليات الطرابلسية قد شحذ سنانه ضد المراسم الكرنفالية « بدون أن يتوقف عند نتائج المهمة ، ونسى أن الأبهة التى يحيط بها ممثلو البندقية أنفسهم أمام الأجانب إنما كانت متواضعة أمام ما تبرج به ممثلو الملك لويس الرابع عشر ، الملك الشمسى» .

وليس خارجاً عن الموضوع أن نذكر ان البندقية ، قبل سنوات قليلة (١٧٦٣) ، استطاعت أن تجدد مع طرابلس اتفاق الصداقة وبموجبه يتعهد الداى ان لا يسمح لسفن

القرصنة التابعة له بالخروج في بحر الادرياتيك (ويسمى في العادة خليج البندقية) وأن يأمر مقدمي سفنه بالمرور دائماً بعيداً عن الجزر التابعة للبندقية (وكانت تسمى جزريونية) وان يكونوا بعيدين عنها بما لا يقل عن ثلاثين ميلا ، ولابد أن الداى لم يقتصر على أمر مقدمي السفن باحترام السفن التي تحمل علم القديس ماركوس فحسب بل أمرهم بعدم التعرض للبضائع أو المسافرين البنادقة حتى إذا كانوا على سفن أجنبية ، وأيضاً باطلاق سراح رعايا البندقية الذين يلقى القبض عليهم في سفن تحمل أعلام دول أخرى .

وفي مقابل تلك الامتيازات تتعهد البندقية بشراء ٢٥٠ موجو ملح من ملاحات زوارة(١) وتدفع مبلغاً سنوياً قدره ٢٥٠٠ سكوين في مقابل الامتياز وتحترم السفن والتجار البنادقة حتى إذا كانوا بعيداً عن بحر الادرياتيك .

ومجمل القول فأن المبلغ هو جزية مقنعة وليس من السهل الانتباه إلى طبيعته ، وإذا ما كانت كلمة - جزية - تبدو فجة ، فهى تعويض عن الخسائر التي تتحملها طرابلس بسبب الحد المفروض على القرصنة لصالح رعايا البندقية ، وباختصار فان البندقية عملت لسبق هولندا ودول أخرى عمله .

لكن انتهاك اتفاق سنة ١٧٦٣ بسبب الشبابك التي دخلت الادرياتيك، والقبض على واحد منها والاستيلاء على سفينة تفرقع علم القديس ماكوس قرب نوارينو كل هذه عكرت صفو العلاقات ، ورفض الداى تقديم أية ترضية وغض النظر عن الاهانة التي لحقت بعلم القديس ماركوس ، مثلما فصل من قبل مع الفرنسيين ولكن ما أن رست الفرقاطات الثلاث والغرابات بقيادة نانى في الميناء حتى هدأت النوايا العدوانية ووعد برد الغنائم والتعويض عن الأضرار وتسليم رعايا البندقية الأسرى وكذلك دفع تعويضاً بسبب الاهانات التي الحقتها لعلم البندقية شرذمة لااخلاق لها .

وربما كانت هذه الترضية الواسعة التي منحت للبنادقة سبباً في الامتعاض الفرنسى الذى أعرب عنه عبر تقارير قنصل الملك لويس الخامس عشر ، ويوجد صدى لهذه الامتعاض وجاء بدون ارادة ولاشك ، في الأسطر القليلة التي خصصها مؤلف الحوليات الطرابلسية للحادث (ص ٢٥٩/٢٦٠) .

---

(١) الموجو هو البوشل الانجليزى الذى يساوى ٨ جالونات أو ٣٢,٥ لتر تقريبا - المعرب .

بين أيدينا التقرير الذى أحاله ناني إلى حكومته بعد عودته من طرابلس ونقرأ فيه أن بحرية الداى في دور انحطاط شديد وأن دار الصناعة تفتقر إلى التجهيزات اللازمة وأن المخازن فارغة والشبابك والغليونات قليلة العدد وفي حالة سيئة وعلاوة على هذه المعلومات قدمت الوثيقة معلومات أخرى ذات طبيعة سياسية :

ان السادة الحقيقيين في الدولة هم بعض المرتدين الذين لا يفتأون عن اثارة الداى على المسيحية ، ربما لخوفهم من اعادتهم إلى حكوماتهم ، وأن الحماية التركية تظهر في شكل غير مباشر ، وإذا ما امتنعت الدول الأوروبية عن المجابهة القوية لحكومة طرابلس الضعيفة فذلك تفادياً للاساءة إلى الباب العالى الذى تحرص جميع الدول على صداقته باستثناء روسيا والنمسا .

وكعلاج أكيد لعنف القراصنة الذى لايمكن اجتنابه ، وهم المستعدون دائماً إلى مخالفة أوامر سيدهم وتحدى التهديد بالعقاب البدني والقتل ولان حرب القرصنة هى مصدر ربحهم الوحيد ، اقترح ناني على حكومته ارسال أسطول قار مسلح تذكر حكومة طرابلس بالخوف الذى أصابهم عندما وجهت سفنه مدافعها على المدينة .

كان ناني رجل سياسة لبق مع براعته كرجل بحر ومنفذ قوى للأوامر ، وبدون أن يذكر اسم فرنسا بوضوح فقد أشار في تقريره إلى سياسة دول أخرى دفعتها مصالحها الخاصة والغيرة من بعض الدول أن تمنع القيام بعمل جماعى قوى ضد الايالات المغربية وتجد الوسيلة لاعلام القراصنة بتحركات الأساطيل المسيحية حتى تتفاداها .

لكن البندقية لم تتبع عندئذ نصائح مقدم سفنها ، فلا ذكر لمخافر بحرية قارة ولا تحركات للأسطول ، وفي وقت لاحق كما يذكر الجميع ، استطاعت أن تفرض احترامها وهيبتها لدى الدول المغربية عندما أرسلت انجلو ايمو (١٧٨٦ – ١٧٩٢) مرات عديدة ليجعلها تتقيد باحترام المواثيق المعقودة تحت قصف المدافع .

واقتنعت الايالة المغربية بطرابلس بعد الهزيمة المنكرة التى حلت بأسطول الباب العالى في مياه جيزمة أمام الأسطول الروسى ، بضرورة التزام الحكمة نحو الاوربيين ، حتى أنه عندما دعى الداى لارسال سفنه نجدة للاتراك لم يستطع أن يجهز سوى غليونين لم يتوجها إلى البوسفور إلا بعد تمرد البحارة والتهديد والعقاب والتسامح ، فكانوا أكثر استعداداً للقرصنة منهم إلى الحرب .

20

وكالعادة لم تلحق بالداى أية نتائج خطيرة إذ أن الدول التى يهمها الأمر كانت تحميه . واستفاد الداى فيما بعد من الحرب الجديدة التى اندلعت بين الانجليز والفرنسيين (حرب استقلال أمريكا) وكان لها صدى في البحر الأبيض المتوسط ووفرت هذه الحرب الفرصة للتفاوض والاتفاق مع فرنسا التى وجدت سفنها المسلحة مأوى ومساعدة في طرابلس .

فرنسا كانت دائماً الحامية الكبيرة للداى والوسيط بينه وبين الدول الأخرى ، وحتى جنوة عندما استولى الطرابلسيون على احدى سفنها طلبت بشكل غير مباشر الوساطة الفرنسية للحصول على التعويض (١٧٨١) ، وبعد أن تهاوت التجارة الايطالية وتوقف رسو سفن جنوة وطوسكانة والبندقية في موانيء طرابلس بعد وفرتها دخلت فرنسا في كل النشاط التجارى بما في ذلك حركة النقل بين مصر وسوريا .

وتذكرنا الحوليات الطرابلسية التى كتبت في أغلب موادها عن التقارير القنصلية وعن هذه الفترة ، بوصول أسطول آخر بقيادة بحار بندقي عظيم إلى طرابلس سنة ١٧٨٤ ذلك هو أنجلو ايمو وتذكرنا أيضاً بما خص به من استقبالات حافلة ، ومن المعروف أن ايمو كان مكلفاً بالحصول على ترضية من حكومة تونس التى كان بينها وبين طرابلس وبصورة مستمرة ما يشبه حالة الحرب ، وكان من البديهى ان يستقبل بحفاوة في طرابلس وقد لاحظ القنصل الفرنسى الأبهة التى يتباهى بها ايمو وأدوات المائدة النفسية .

وفي تلك المناسبة اتفق على تجديد الاتفاق بين البندقية وطرابلس لاحتكار ملاحات زوارة بزيادة كبيرة في القيمة النقدية السنوية ، وكان لطوسكانة وهى دولة ايطالية أخرى نشاط تجارى مزدهر حسب ما ذكرته التقارير القنصلية ، أما مدينة ليقورن ذات الميناء الحر فكانت أكبر مركز لتجارة الأصواف .

وبعد النكبة الداخلية في البيت القره مانلى عندما خضعت طرابلس لبعض الوقت لحكم علي برغل الجيورجى (ومعروف أن هذا المرتد جاء إلى طرابلس على ظهر سفينة بندقية) قطعت العلاقات مع قناصل الدول المسيحية . ومن حسن الحظ أن هذا الحكم كان قصيراً ، إذ بعد عام ونصف عادت العلاقات الطيبة بعودة القره مانلى إلى السلطة سنة (١٧٩٥) . ولكن هذه العودة كانت أيضاً مشؤومة إذ أن يوسف ، الباشا الجديد ، قد استغل فرصة الحرب القائمة بين فرنسا وانجلترا وأعاد حرب القرصنة ، ونزل ثقلها على نابولى وصقلية وسردينا ، ولكن يوسف حافظ على علاقات ممتازة مع فرنسا وعرف كيف يبتز العطايا (ولنسمها أيضاً جزية) من أسبانيا ونابولى والبندقية في مقابل منح إجازات مرور لسفن تلك الدول . ولم يوفق دائماً في اغراضه ، إذ أصاب الضرر عمارة دانمركية فجاءت سرية بحرية تابعة لهذه البلاد ولقنته درساً قاسياً وأنزلت بسفن القرصنة بالغ الأذى (١٧٩٧) ، وفي هذا ما يشير إلى أنه إذا عرفت نابولى كيف تستفيد من الوضع لكان ذلك ممكناً دون ريب ولقطعت شرايين القرصنة ، ذلك لأن أساطيلها البحرية بلغت أشدها بفضل ما أدخله عليها أكتون من تحسين .

واستناداً إلى ما جاء في الحوليات فان يوسف في ثلاث سنوات قد ابتز ٤١ ألف قرش من أسبانيا و٥ آلاف من نابولى و٢٣ ألف قرش من البندقية علاوة على العتاد والأسلحة .

حافظ نابليون بونابرت في أثناء حملته على مصر على علاقات ممتازة مع طرابلس واستلم منها مواد الاعاشة لحامية مالطة ، وبالرغم من أوامر الباب العالى حصل نابليون على وعد ان لا يشترك الباشا في الحرب ضد الفرنسيين (١٧٩٨/١٨٠٠) وعندما فرض عليه العنف الانجليزى طرد القنصل الفرنسى فقد أمر يوسف ربابنته باحترام علم الجمهورية الفرنسية .

واستفادت جنوة من هذا الأمر بعدما أصبحت جمهورية تابعة لفرنسا . وعندما آلت البندقية إلى ممتلكات النمسا ، أصبح لهذه الدولة الحق في الالتزام بجميع الاتفاقات التى التى عقدتها الجمهورية مع الدول الغربية ، ولذلك جاء إلى طرابلس قنصل نمساوى بدلا من القنصل البندقي . واندفعت القرصنة تعمل مفضلة الممتلكات النمساوية في بحر الادرياتيك وجزيرة سردينا ، ويكفى أن نذكر الهجوم على كارلوفورتي سنة ١٧٩٨ والقبض على ٦٠٠ شخص تولى نابليون بونابرت بعد ذلك الوساطة لتحريرهم .

وشعرت نابولى بعد سقوط جمهوريتها بثقل حرب القرصنة الطرابلسية ، وكلما طالعنا وثائق هذه الفترة أكثر ازدادت قناعتنا بأن يوسف عرف باقتدار كيف يجلب كل دول أوروبا مبتزاً الأموال في كل مناسبة باستثناء فرنسا الصديقة بالطبع التى كانت تضاعف مجاملتها فتهدى إلى ذلك الحاكم سفينة حربية . وحتى الولايات المتحدة اضطرت إلى الركوع والدفع بعد الحملة التى قامت بها ضد طرابلس واحتلال درنة والتى انتهت بكارثة .

ونلاحظ أن بالأسطول الأمريكى المرسل إلى طرابلس بعض المدافع كان القائد الأمريكى قد استعارها من بحرية نابولى ، وتميز أحد الربابنة المسمى كاتالانووهو من مدينة مسينا ، في الهجوم من السفينة انتربيد لنسف السفينة الأمريكية الجانحة (١٨٠٤) .

وزاد العنف القرصنى الطرابلسى على سردينا وخاصة بعد حملة كارلوفورتي والطرابلسيون لا يقلون عنفاً عن قراصنة تونس واستطاع السكان أن يردوهم بكل بسالة أو يفرّون أمام شواني ملك سابا وديا وقد يستحق أن نذكر من بين الحملات التى قام بها الأسطول الطرابلسى الصغير حملة ١٨١٣ على مصائد التن في كاسالبوني ، حيث هناك تولى السكان وصائدو السمك مطاردة أسطول الشبابك الصغير وابعاده قبل وصول مراكب سابا وديا التى كانت تجوب في تلك الجهة .

21

في مؤتمر فيينا الذى أنهى ملحمة نابليون كانت شكوى الدول الأوروبية عالية وقوية ضد قرصنة المغاربة عامة بما في ذلك القرصنة الطرابلسية وقد أبدى بقايا الفرسان من أجل العودة لامتلاك مالطة بعد تشتتهم سنة ١٧٩٨ عن استعدادهم للقيام بجولات بحرية سنوية لوضع حد لحرب القرصنة المخزى وقدم العرض بواسطة حامى الفرسان الكبير قيصر روسيا وبالطبع فإن انجلترا قد عارضت الطلب ، وهكذا فشلت جميع الاقتراحات الرامية إلى إنشاء عمارة دولية تجرى الرقابة في البحر الأبيض المتوسط .

وكما هو معلوم فقد كلفت انجلترا وحدها لغرض حظر حرب القرصنة على الدول المغربية وقد أعطى الأمر بالعمل لقائد الأسطول الانجليزى لورد اكسموث ، ولكن التعليمات لم تكن قوية ، ففى طرابلس اكتفى بفرض تسريح بعض المئات من الأسرى والتوقيع على أتفاق باسم ولحساب الملك فكتور ايمانويل الأول ملك سردينيا وفرديناند الأول ملك نابولى . واتفق مع ملك سردينيا على حصانة متبادلة وفتح قنصلية في طرابلس والتزمت مملكة سرينيا بدفع ٤٠٠٠ قرش عند تعيين كل قنصل جديد ، مثلما التزمت الدول الدول الأخرى ، وبدون أى استثناء ، واعترف لمملكة نابولى بنفس الحقوق وجدد معها اتفاق صيد المرجان .

وفور سفر لورد الكسموت بأسطوله وابحار الأسرى المحررين معه خرجت من طرابلس شبابك القرصنة فألقت القبض على سفن تجارية بابوية وقوارب صيد سمك عند سواحل طوسكانة .

واحتجت حكومة فيينا بكل شدة وأرسلت فوراً إلى مياه طرابلس لطلب الترضية فرقاطة وابريق وكانت لاتزال في دور البناء بالبندقية . ورد الداى بعجرفة على القوات النمساوية (أو للتدقيق قوات البندقية) الضعيفة ، بل رفض حتى استقبال قائد الفرقاطة

باسكو اليقو البطل ، وقد اضطر هذا إلى الابتعاد خائباً (أغسطس ١٨١٦) على أن هذه الاهانة التي أصابت البحرية جعلت النمسا تلجأ إلى طرح مسألة القرصنة في مؤتمر أكويسقوانة وفي الواقع فقد استؤنف القنص واللصوصية من قبل الطرابلسيين والجزائرين على حد سواء (بالرغم من أن هؤلاء لقنوا درساً قاسياً في أغسطس ١٨١٦) وعندئذ أسندت مهمة رجل الشرطة على الشواطىء الافريقية إلى الدولتين القويتين انجلترا سيدة جبل طارق ومالطة ،والى فرنسا فتقدمت أمام طرابلس تشكيلة بحرية مختلطة بقيادة كل من أمير البحر فريمانتل وأمير البحر يوريان دى لاقرافيير وهذا الأخير مؤرخ لامع للبحرية الفرنسية ، وفرض القائدان الغاء حرب القرضنة بشكل مطلق وكامل (أكتوبر١٨١٩) .

وبهذا ينتهى تاريخ البحرية الطرابلسية التى بدأت منذ الغارات العربية الأولى واستمرت أحد عشر قرناً ، باستثناء انقطاع قصير وكانت المصدر الرئيسى للدخل بالنسبة للسكان المسلمين في الشريط الساحلى .

على أن نهاية القرصنة قد سجلت تدهور الازدهار بالمنطقة تدهوراً كاملا وفي الوقت الذى كانت تعاني فيه حروباً داخلية متزايدة وانتفاضات قبائل الدواخل (من المفيد أن نذكر البعثة إلى برقة التى جرت في نفس السنة التى أبرم فيها لورد اكسموث الاتفاق بين سردينيا وطرابلس ، وهذا الاتفاق الذى تحدث عنه الطبيب الجندى حديثاً قيماً ورائعاً) وظلت التجارة وحدها تقدم بعض الفوائد ولنها كانت في تناقص مستمر بسبب انقطاع قوافل فزان المتكرر .

وعندما اندلعت الحرب التركية اليونانية كان على طرابلس أن تسلح بعض المراكب الحربية لارسالها نجدة للأتراك ، ولكنها كانت كما كتبَ أمير البحر التركى عبارة عن مراكب صيد الأسماك عليها تسليح سيء وبحارة أسوأ . والتجأ الباشا إلى الدول التى كان يعاد بها لبناء وتسليح بعض السفن التى يجب أن يوفرها للسلطان تنفيذاً للاتفاق . وقدمت ليقورن وتريستا ومالطة إلى طرابلس السفن والمعدات ، إلا أن هذه قد دمرت بالكامل في معركة نافارين .

22

وها قد وصلنا إلى الحادثة الغريبة في تاريخ العلاقات البحرية بين طرابلس والدول الايطالية في القرن التاسع عشر واعنى بذلك حملة سردينيا على طرابلس سنة ١٨٢٤ .

وتنفيذاً للاتفاق المعقود مع لورد اكسموت فإن على دولة سردينيا أن تدفع تعويضاً قدره ٤ آلاف شلن عند تعيين أى قنصل جديد . وحدث أثناء غياب مؤقت للقنصل الرسمى أن طلب الباشا من القائم بالأعمال أن يدفع التعويض . ورداً على الرفض القاطع من الملك وحكومة شارل فيليكس بدأ الباشا الأعمال العدوانية ، حتى أن القائم بأعمال القنصل السيد فو السافوى اما لخوف أو لسوء تفسير وافق على التوقيع على كمبيالة لصالح الباشا بالمبلغ المطلوب وهى الكمبيالة التى رفضتها بالطبع حكومة طورينو .

وظهر العداء واضحاً عندما جرى تسليح تشكيلة بحرية تتألف من بريقتين وبوف وغولت (١) أرسلها للقرصنة في مياه سردينيا .

ورداً على هذا الخبر قررت حكومة سردينيا جمع سفنها الجاهزة والتحول للقيام باستعراض بحرى وسبق ان جاب بعضها موانيء الشرق سنة ١٨٢٢ ، بعد أن أعادت بناء أسطول لا بأس به .

وتتألف التشكيلة من السفينة « تجارة جنوة » والفرقاطة «كرستينا» وسبق لها ان أرسلت إلى تونس والغراب تريتون ، والبريق ، نيريثيدى ، بالاضافة إلى أربعة من سفن النقل وقاد هذا الأسطول المقدم البحرى سيفورى وسبق له أن عمل بالبحرية الفرنسية

---

(١) - بريقنتين - سفينة حربية صغيرة وخفيفة، استعملها القراصنة فى جولاتهم البحرية فى العصور الوسطى ، البوف : لم أعثر له على وصف - غولت : وعرفت ايضا غيلاطة ، ومن مميزاتها السرعة لضيق عرضها وامتداد طولها وتحتوى فى العادة على ٧ مدافع من عيار ٤ بوصة وهؤلاء الاسماء كلها دخيلة . (المعرب)

وتميز بالجرأة في أكثر من معركة . وأعطيت له تعليمات بأن يحاول بجميع الطرق الوصول إلى وفاق دون تنازل وأن يستعين حتى بالوساطة الانجليزية بواسطة القنصل فقد عقد اتفاق سنة ١٨١٦ تحت رعايته . وإذا لم ينجح في اقناع الباشا عليه أن يجمع مجلس حرب يشترك فيه جميع قناصل سردينيا المكلف بنقلهم إلى موانيء الشرق ودراسة فيما إذا كان من المناسب محاصرة طرابلس أو الهجوم عليها بعنف .

وبعث سيفورى للاستكشاف البريق تريتوني وعلم أن بالميناء غوليتين تحمل كل واحد منها ٦ مدافع وبريق واحد به أثنى عشر مدفعاً (سبتمبر ١٨٢٥) واتصل بعد ذلك بالقنصل الانجليزى وبواسطته بالحاج محمد أمين سر الباشا . واقتنع سيفورى بعد محادثات طويلة دامت يومين أن الاتفاق السلمى بعيد المنال فرجع إلى سفينة القيادة وأرسل الانذار الأخير ، واجتمع مجلس الحرب حسب التعليمات وتقرر محاولة تنظيم مفاجأة وقد جرى التأكد أن القصف بمدفعية السفن لن يعود بأية فائدة بسبب التحصينات وبطاريات السواحل واستحالة اقتراب السفن من المدى الصالح للضرب .

وفي هذا الوقت قرر سيفورى ركوب البحارة أثناء الليل في قوارب الانزال الخاصة بالفرقاطة كريستينا وتريتوني ونيريشيدى وقوارب أخرى صغيرة وكان مجموعها عشرة ، مجهزة بالمجاديف ، وتولى الملازم أول بحرى ماميلي قيادة سرية الانزالى ، وفي كل قارب ضابط مرؤوس (ملازم أول ، حارس بحرى ، ضابط بالسلاح البحرى) وتشكلت بذلك ثلاث مجموعات واحدة منها ظلت تحت قيادة ماميلي وكلفت بمهاجمة بريق طرابلس كان راسياً بالميناء ، وكان على المجموعة الثانية أن تهاجم الغولت بقيادة بميليا من الفرقاطة كرستينا ، أما الثالثة فكانت بقيادة الملازم ثان كيجى ومهمتها هو منع الاتصال بين السفن والأرض وإذا ما وجدت الفرصة فعليها أن تحتل دار الصناعة وقطر البريق نيريشيدى هذه القوارب حتى مدخل الميناء ومنه تقدمت دونجلبة أو ضوضاء ليلة ٢٦ سبتمبر وعلى ظهرها ٢٦٠ بحاراً . واقترب رجال ماميلى في كامل السكون إلى البريق واندفعوا على ظهره مهاجمين على حين غرة رجال الحراسة فقتلوهم واستولوا على السفينة قسراً ثم أحرقت بعد أن رؤى أنه من المستحيل جرها .

وتحت نار مدفعية الميدان هاجم بيليتا الغولت وفي الوقت نفسه هاجم كيجى بجرأة عظيمة الحامية ونزل برجاله إلى البر ومنع من نجدة السفن . وقبل الفجر عادت

القوازب العشرة إلى متن السفن، وكانت الخسارة هى ميت واحد وآخر مجروح جرحاً مميتاً وبعض الجرحى بجروح خفيفة . والخلاصة أن الحملة لم تنجح نجاحاً كاملا إذ لم يتم احتلال دار الصناعة ، على أن فيروا لم يكن عادلا أبداً عندما قال على ذمة القنصل الفرنسى أن حملة سردينيا هذه كان عليها أن تنسحب فقد خسرت كثيراً من رجالها ان مثل هذا القول لا يصدر إلا من أصدقائنا في فرنسا .

لقد منعت غيرة القنصل الفرنسى من زميله الانجليزى صديق سردينيا من أن يرى ويقدر.

أما الباشا وقد خاف من هذه التجربة الهائلة لجرأة بحارة سردينيا وخوفاً من تجدد الهجوم فقد أسرع إلى قبول التفاهم ، وقد سبق لسيفورى أن اعلم قناصل الدول الأجنبية أنه سيقصف المدينة من البحر في اليوم التالى .

وهكذا تخلى الباشا عن كامل مطالبه وحيى علم سردينيا بست طلقات مدفع كما هو مقرر ووافق على استقبال قنصلها وأمر بتقديم تحية السلاح لسيفورى عند نزوله إلى الأرض مع كامل رجال أركان حربه .

وبهذا فقد نالت بحرية سردينيا نصراً مميزاً إذا ما قدرنا قلة الوسائل والوضع الذى كانت عليه الدول الايطالية . واستغلت مملكة نابولى انتصار سيفورى لمنع الباشا من المطالبة بهدية جديدة بمناسبة موت الملك فرديناند الأول وتولى أبنه فرانشيسكو العرش من بعده .

لكن طرابلس لا تستطيع التخلي عن حرب القرصنة ، ففى سنة ١٨٢٦ جرى الاستيلاء على ثلاث من السفن البابوية ، واستدعت لذلك تشكيلة بحرية فرنسية مهددة ، وفرضت على يوسف باشا ترجيع الغنائم وتحرير الأسرى والوعد بأن سفنه ستحترم من الآن فصاعدا العلم البابوى، وهكذا بدأ الملك شارل العاشر بمد الحماية على البابوية وتبعه في ذلك ورثته إلى نابليون الثالث والرئيس تيير .

ويمكن أن يقال أن معركة نافارينو التى اشترك فيها الطرابلسيون وأصيبوا فيها بخسائر شديدة هى آخر وجه للبحرية الطرابلسية ، فلم تبن بعد ذلك سفن جديدة لتعويض ما ضاع ولم يهيأ رجال آخرون للعمل في البحر ، وقد كبحت تشكيلات من من السفن الفرنسية والانجليزية التى يثت في مياه المغرب بعد الانتصار التعصب الاسلامى الذى أوقده الباب العالى .

واعتقد يوسف أنه ما يزال قادراً على التسلط على بعض الدول الايطالية ، وأصر على أن يطلب هدية فوق العادة من فرانشيسكو ملك نابولى إذ كان يعتقد أن اتفاق سنة ١٨١٦ الذى فرضه لورد اكسموث يجب أن يعتبر منتهياً . وعندما تبين ان المفاوضات لاتفاق سلمى قد باءت بالفشل ، ولا يستغرب ان القنصل الفرنسى ساعد على اذكاء نار الخلاف ، هناك أرسل الملك فرانشيسكو الأول تشكيلة من خمس سفن ، (ثلاث فرقاطات وبريق وغوليت واحدة بالاضافة إلى ٤ سفن مزودة بمدافع خنادق و٨ سفن أخرى مدفعية ووضعت هذه القوة تحت قيادة المقدم سوزى — كارافا . وصلت هذه العمارة إلى طرابلس يوم ٢٢ أغسطس ١٨٢٨ وبعد فشل المفاوضات السلمية بدأ سوزى القصف المدفعى في اليوم التالى بالمدافع من السفن المخصصة لذلك . بيد أنه اما لسبب الوضع الملاحى السيىء لتلك السفن المتآكلة أو بسبب البارود الفاسد أو لسبب حالة البحر لم يكن للقصف أى أثر . وأضطرت السفن للانسحاب . وبعد أيام قليلة أطلق سوزى النار من سفن صغيرة : ايزابيلا والأمير شارل ، وفي هذه المرة كذلك فان نوعية البارود التى تتجهز بها بحرية نابولى من متعهدين لاذمة لهم جعل فعالية القصف لاشىء (٢٦—٢٧ أغسطس) . وفي آخر قصف بحرى (٢٨ أغسطس) استطاع العدو أن يسكت سفن المدافع ولذا فان سوزى كارافا انسحب تاركاً الميدان واسعاً أمام الطرابلسيين الذين شرعوا فوراً في حرب قرصنة ضد نابولى ، لقد كانت خسارة الطرابلسيين ١٠ قتلى وعدداً كبيراً من الجرحى هذا ما قاله أحد رعايا نابولى كان يقيم بطرابلس أما صاحب الحوليات الطرابلسية فأنه قال : لم يمت شخص واحد وان الفضل في حمل الباشا على السلام يعود إلى القنصل روسو !!

وتم الاتفاق على السلام بواسطة السفير الفرنسى بنابولى دوق بلاكاس وهو سلام لا يشرف الملك كثيراً ، فقد فرض عليه أن يدفع ٤٠ ألف قرش ، وأعقب هذه الحملة المشئومة محاكمة سوزى بسبب التهاون ، ولكن الملك ألغى الحكم .

23

ان نهاية القرصنة بفضل تهديد الدول البحرية المستمر ساهمت بنصيب وافر في سقوط الحكم القره مانلي : فالسكان وقد حرموا من الوسائل المعتادة للبقاء وضيق ايرادات الخزينة وامتناع الاداء من الدول البحرية ، كل هذه العوامل خلقت حالة نفسية أيقظت روح الثورة الكافية . لقد اندلعت تلك الثورة سنة ١٨٣١ واستمرت لبعض السنين وحتى بعد تنازل يوسف لصالح ابنه علي ، عندما استدعى الباب العالي للواجب فاغتنم الفرصة السانحة للتخلص من القرهمانليين واخضاع طرابلس وبرقة لسيطرته المباشرة (١٨٣٥)

وفي هذا التدخل التركي تتضح يد الانجليز وكان يهمهم منع فرنسا من الحصول على فرصة للتدخل كما فعلت قبل سنوات قليلة في الجزائر . وهناك أدلة كثيرة تثبت أن فرنسا كانت تضع عينها على تونس وطرابلس كما توجد أدلة أخرى تثبت أن تركيا كانت تفكر في ضم تونس بالاضافة إلى طرابلس ، وقد منعتها المراقبة المحكمة التي كانت تقوم بها فرنسا بقواتها البحرية .

وهكذا بعد أن فقدت تركيا الجزائر نهائياً وظلت سيادتها على كل من تونس ومصر سيادة اسمية تعود مرة أخرى لتضع رجلا في هذه البلاد الواقعة بين المنطقتين وبذلك يختلط تاريخ طرابلس منذ ذلك الوقت وحتى مجيئنا ١٨٣٥ — ١٩١١ بتاريخ الامبراطورية التركية .

وعادت العلاقات بين طرابلس والدول الايطالية منذ ذلك التاريخ وإلى ما بعد إلى علاقات تجارية فقط اغلبها من عنصرين أثنين هما رعايا ملك سردينيا (أو الجنويين) ورعايا دوق طوسكانة (أو الليقورنيين) ويتميز العنصران بنشاط كبير في جميع موانىء الشرق على أن الهرج والمرج المستمر في المناطق الداخلية قد جعل الحركة في الموانىء الطرابلسية في تناقص دائم .

لايدخل في نطاق هذه الدراسة الاهتمام بالسياسة التى اتبعتها مختلف الدول الايطالية ولا السياسة التى سارت عليها من بعد مملكة ايطاليا بعد سنة ١٨٦١ تجاه طرابلس ولا سياسة التغلغل السلمى الموضوعة عندما فرض توسع السيادة الفرنسية في البحر المتوسط الافريقى على ايطاليا أن تتذكر تحويض الطبيب الجنوى دلا تشيّلا إلى ملك سردينيا ، وتذكر فقط أن أهم خط للمواصلات البحرية بين طرابلس وأوربا الغربية كان ذلك الخط الذى أسسته شركة روباتينو الجنوية ودمجت فيما بعد مع شركات أخرى وصارت تعرف باسم شركة الملاحة الايطالية (١٩٠٠)

أما ما يخص الجالية الايطالية المستقرة بطرابلس وعلى رأسها قنصل ايطالى بدأ عمله منذ سنة ١٨٦٠ فان الوثائق تكتب الأخبار المغرضة التى أوردها فيرو والذى ادعى أن الجالية تتألف من عدد قليل من الجنويين والليفورتيين والنابوليطان يعيشون حالة يؤس وهم من الأرقاء السابقين تحرروا واستقروا في طرابلس عمالا باستثناء بعض يهود ليقورن الاغنياء .

مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي

ص. ب. 5070 طرابلس

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

رقم الإيداع: 514/88 دار الكتب

مطابع
قطاع الورق والطباعة
الثورة العربية / طرابلس

الا حداث الايطالية فى البحرية الطرابلسية

CAMILLO MANFRONI

L'ITALIA NELLE VICENDE MARINARE DELLA TRIPOLITANIA

A. AIROLDI EDITORE VERBANIA
MCMXLII - XX